البابُ الثالِث

أغراضٌ وفنُون

الفصل الأول : الأغراض التقليدية

الفصل الثاني : الأغراض الحديثة

الفصل الثالث : الخصائص الفنية

obeikandl.com

obeikandl.com

البابُ الثالِث

الفصل الأول

الأغـراضُ النّقليديّـة

١ – المدح

٢ – الفخر

٣ – الهجاء

٤ – الرثاء

٥ – الغزل

٦ – الخمر

٧ – التشيع

٨ – الأخويات

٩ – الطرد

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الأغراض التقليدية

تمهيد :

ازدهرت الحياة الأدبية في رحاب سيف الدولة ازدهاراً كبيراً فتعددت فنونها وتنوعت ألوانها. وأسهم شعراء الندوة السيفية في الموضوعات التي عرفها الشعر العربي في العصور السابقة من مدح وفخر وهجاء ورثاء وغزل وخمر وتشيع وأخويات وطرديات . وجددوا في صورها وأخيلتها وصياغتها ومعانيها .

وجرت بعض المحاولات التطويرية في بعض هذه الفنون وخاصة الرثاء والغزل والخمر والتشيع والطرد ولكن هذه المحاولات لا تسمح بأن تخرج هذه الفنون عن نطاق التقليد . لأن الشعراء نهجوا فيها نهج سابقيهم وساروا على خطاهم .

ولقد تأثرت الأغراض الشعرية بسيف الدولة وكان معظم الشعر الذي قيل في رحابه يدور حول شخصه كما أن البيئة كان لها أثر كبير في فنون الشعر وألوانه وتعدد صوره ومعانيه .

ولنبدأ هذه الفنون بالمدح .

المـدح

احتلّ شعرُ المدح مكانة عظمى في بلاط سيف الدولة الحمداني وغلب هذا الغرض على شعر الشعراء خاصة الوافدين على حلب بحثاً عن نوال الأمير وصلاته وهباته التي طار صيتها في الآفاق ، فلقد أتوا يحدوهم حب المال ويدفعهم البحث عن الجاه والغنى . ولهذا غلب فن المديح على سائر الفنون الأخرى وأصبح الشاعر يطرق بعض أبواب الشعر مثل الحماسة والفخر والنسيب والوصف من خلال المديح ولا غرو في ذلك لأن الشاعر لم يكن قادراً على الاستغناء عن محافل الأمراء ، لأنهم الطريق الأوحد إلى مجده فلم يكن الشاعر في الأغلبُ يعبّرُ عن خواطره ويشعرُ لنفسه ، وإنما كان يجري وراء رضى ممدوحه وماله ليستطيع أن يعيش ويحصل على ما يرجو .

ونود أن نوضح أنه ليس معنى قولنا هذا أن كل شعر المديح الذي قيل في ظل الأمير الحمداني كان ينبعث من دافع التكسب وحده ، إذ أن هناك نفراً من الشعراء مدحوا الأمير وإلى جانب رغبتهم في التكسب أو التقرب منه أحسوا بعاطفة تشدهم إليه وإعجاب ملك عليهم أنفسهم ودفعهم لأن يقولوا في مآثره غرر القصائد لأنه يكوّن بالنسبة إليهم مثلاً أعلى في الكفاح الدائب والمستمر من أجل الذود عن حياض الإسلام ودرء خطر الأعداء الداهم .

ويعد سيف الدولة أكثر الأمراء في عصره نصيباً في شعر المدح هذا إن لم يكن أكثرهم على طول العصور ، وحسْبك ما ذكرناه ، سابقاً من أن كلا

من أبي محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وأبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت [1] . ولقد قال الثعالبي إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك — بعد الخلفاء — ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر [2] . وإذا أدركنا أن الهدف الأول لهذا الجمع الكبير من الشعراء هو الحصول على نوال الأمير ومنحه تسنى لنا أن نعرف إلى أي حد تضاعف مدح الأمير وكثر .

ولقد دارت مدائح الشعراء للأمير حول الصفات التي كانت تعد في ذلك العصر أمّهات الفضائل وهي العقل والشجاعة والعدل والعفة ومجد العروبة وشرف الأصل والجود والكرم .

ومن الشعراء الذين مدحوا سيف الدولة المتنبي الذي انقطع للامير طَوال إقامته في كنفه لمدة تسع سنوات نظم فيها نيّفاً وثمانين قصيدة ومقطوعة .

ولا نكاد نقرأ مِدحة من مدائح المتنبي في الأمير حتى نرى فيها التغني بشجاعته وقوته وبسالته في قتال الأعداء ، وبطشه بهم ، فالشجاعة هي أول عنصر بارز في مدحه . ومديح المتنبي للأمير مخلصٌ صادق ينبعث من مشاعر الإعجاب وكوامن التقدير ولعل ذلك عائدٌ إلى العوامل العديدة التي تجمع بين الأمير والشاعر فهما معاً من مواليد سنة ٣٠٣ هـ ويشتركان في إيثار البطولة والفروسية والاهتمام بالشعر والأدب والتعصب للعربية .

ولعل لعربية سيف الدولة وعجمة أمراء عصره جميعاً دخلاً في الهاب نفسية الشاعر ، وكذلك في تميزه بينهم وبين سيف الدولة الذي ملك عليه قلبه وأنزله أعلى المنازل ، والمتنبي ثائر على العجم وتملكهم مقاليد المسلمين وكم سمعنا تحريضه على انتزاع الأمور من أيديهم :

---

(١) اليتيمة (١ / ١٦) .
(٢) المصدر نفسه (١ / ١٦) .

إنّما النّاسُ بالملوكِ ومـا تنْفَعُ عُرْبٌ ماوكُها عَجَمُ
لا أدَبٌ عندهمْ ولا حسَبٌ ولا عُهُودٌ لهمْ ولا ذمَمُ
في كلّ أرض وطئتها أمَمٌ تُرْعى بعَبْد كأنهم غَنَمُ
يستَخْشِنُ الخزَّ حينَ يلبسه وكانَ يُبرى بظفرِهِ القَلَمُ (١)

ولقد كان مدح الشاعر للأمير الحمداني فخماً يختال في أبهى الحُلَل وأزهاها ولا إخالُني مبالغاً إذا قلت : إنه وثبة المديح في لغة الضاد .

ولقد أخلص المتنبي لفنه الإخلاص كله خلال مدائحه للأمير الحمداني واتخذ من اسمه أوسمة وقلائد حلّى بها صدْرَ قصائده ومقطعاته وأبياته بصورة لم يسبقه إليها شاعر كقوله :

لَقَدْ رَفَعَ اللهَ مِنْ دَوْلَـة لها مِنْكَ يا سَيْفَها منصلُ (٢)

وقوله :

لقد سلّ سيفُ الدولة المَجْدُ مُعلِماً فلا المجْدُ مخفيهِ ولا الضرْبُ ثالمهْ
على عاتِقِ المَلْكِ الأغرّ نِجادهُ وفي يَدِ جبّارِ السّماواتِ قائمهْ
وإنّ الذي سَمّى عليّاً لمُنصفٌ وإنّ الذي سمّاه سَيْفاً لظالمُهْ
وما كلّ سيف يقطعُ الهامُ حدّهُ وتقطعُ لَزْباتِ الزّمانِ مكارمه (٣)

وقوله :

إنّ الخليفةَ لم يُسمّكَ سيفَه حتى بلاكَ فكنتَ عينَ الصّارِمِ

---

(١) الديوان ص (٦٦) .
(٢) اليتيمة (١ / ١٨٥) .
(٣) اليتيمة (١ / ١٨٦) ، واللزبات ـ كاللزب ـ جمع لزبة وهي الشدة .

وإذا تتوَّجَ كنتَ دُرّةَ تاجِهِ وإذا تختّم كنتَ فصَّ الخاتمِ[1]

وقد سلك المتنبي في قصائده التي مدح بها سيف الدولة مسلك الشعراء القدماء إذ استهل بعض قصائد المدح بذكر الأطلال والوقوف عليها ويقول في إحدى مدائحه لسيف الدولة :

أجابَ دمعي وما الدّاعي سوى طلَلِ دعا فلبّاهُ قبلَ الرَّكبِ والإبلِ
ظلَلْتُ بين أُصَيْحابي أكَفْكِفُهُ وظلَّ يسفَحُ بينَ العُذْرِ والعَذَلِ
أشكو النّوى ولهُمْ مِن عبرتي عجبٌ كذاكَ كنتُ وماأشكو سوى الكلل[2]

يقول المتنبي : إنه وقف على منازل محبوبته فشجاه ما شاهد من رسوم دارسة واستدعى ذلك بكاءه . ويقول ظلَلْت أكفكفُ الدموع خوفاً من لوم أصحابي ولكن دمعي أبى إلاّ أن يسيل وأصحابي بين عاذر لي وعاذل وهم يتعجبون من بكائي للفراق ولا عجب في ذلك فإني على مثل ما يرون حين كانت المحبوبة بجواري لا يحجبها عني سوى السّترُ .

وينتقل المتنبي من ذكر الأطلال إلى الحديث عن هذه الحبيبة المُمَنّعة في قومها بالسيوف والرماح . ويقول أن هجرها أقتل له من سلاحهم . فإذا كان مقتولاً بالهجر لم يبال بعده بالسلاح خاصة أن محبوبته محبوبة في قومها منيعة فيما بينهم وانه في يأس من الوصول إليها :

ومـا صَبابَةُ مشْتاق على أمَلِ من اللّقاءِ كمشتاق بلا أمَلِ
متى تَزُرْ قومَ من تهوى زيارَتها لا يُتحفوكَ بغير البيضِ والأسَلِ
والهَجْرُ أقتَلُ لي ممّا أُراقِبُـهُ أنا الغريقُ فما خوفي منَ البَلَلِ ؟

---

(١) المصدر نفسه (١ / ١٨٦) .
(٢) شرح ديوان المتنبي ـ عبد الرحمن البرقوقي ـ المجلد الثاني (٣ / ١٩٨) .

ما بالُ كلّ فُؤاد في عَشِيرَتِها بهِ الذي بي وما بي غيرُ مُنْتَقِلِ

ثم يصف جمال المحبوبة الفتّان ، فهي مالكة القلوب ولمقلتيها مُلكٌ عظيم في دولة المقل لهما دونها الأمر النافذُ ، وأن النساء الجميلات يقصرْنَ عن محاسنها فيتشبهنَ بها في حسن المشية ويكتسبن الحسن منها :

مُطاعَةُ اللّحْظِ في الألحاظِ مالكةٌ لمُقْلَتَيها عظيمُ المُلْكِ في المُقَلِ
تَشَبّهُ الخَفَراتُ الآنساتُ بها في مشيها فينَلْنَ الحسْنَ بالحِيَلِ

وكان المتنبي يطرق باب الفخر قبل أن يبدأ مدح ممدوحه وكان هذا شأنه في أغلب قصائده . فهو يقول مثلاً مفتخراً في إحدى مدائحه وقبل مدح ممدوحه :

وقَدْ طَرَقْتُ فتاةَ الحيّ مرتَدِياً بصاحب غيرِ عزهاة ولا غَزِلِ[1]
فباتَ بينَ تراقِينا نُدَفّعُهُ وليسَ يعلَمُ بالشّكْوى ولا القُبَلِ
ثم اغْتدى وبهِ من درْعِها أثَرٌ على ذُؤابَتِهِ والجَفْن والحِلَلِ
لا أكسَبُ الذّكْرَ إلاّ من مضاربهِ أو من سِنان أصمّ الكعبِ مُعتدلِ

ثم يربط الشاعر هذه المقدمة بالمديح ربطاً جميلاً موفقاً بحيث لا نشعر أنه انتقل انتقالاً مفاجئاً فيقول :

جادَ الأميرُ به لي في مواهبِهِ فزانَها وكساني الدّرْعَ في الحلَلِ
ومنْ عليٍّ بن عبد اللهِ مَعْرِفَتي بحَمْلِهِ مَنْ كعبدِ اللهِ أو كعَلي ؟

وينتقل الشاعر ليمدح قوة الأمير وحُسْن بلائه في الروم ، فالزمان

---

(١) عزهاة : عازف عن اللهو والنساء لا يطرب للهو ويبتعد عنه ـ الديوان ص (٢٠٢) .

يضيق عن فخامة قدره والأرض كذلك تضيق عما يحمّلها من جيوشه ، والمسلمون في فرح بانتصاره والروم في خوف منه لغاراته وغزواته والبرّ في شغل بجيشه والبحر رمز الجود والكرم خجِل من ندى كفّيْه :

ضاق الزّمان ووجه الأرض عن ملك ... مِلْء الزمان وملء السّهل والجبَلِ
فنحنُ في جذَل والرّوم في وجَل ... والبَرّ في شُغُل والبحرُ في خجلِ

ويمدح الشاعر الأمير بقبيلته تغلب التي اتصفت بالشجاعة والجود ويستطرد قائلاً إذا مدحته بذكر آبائه كان ذلك عين العِيّ فأين هم من الأمير إذا وزنوا به ؟ لقد فاقهم جميعاً :

مِن تَغْلِبُ الغالبين النّاسَ منصبُهُ ... ومن عديٍّ أعادي الجُبنِ والبخَلِ
والمدحُ لابن أبي الهيْجاءِ تُنْجِدُهُ ... بالجاهليّةِ عينُ العِيّ والخَطَلِ
ليْتَ المَدائِحَ تستوفي مَنَاقِبَه ... فما كُلَيبٌ وأهلُ الأعصرِ الأوَلِ
وقدْ وجدتَ مجالَ القول ذا سعة ... فإن وجدْتَ لساناً قائلاً فقُلِ

ويصف المتنبي الأمير بأنه أفضل قائد في كف أفضل أمة ، وأن الأماني التي يطلبها تسقط دون مبلغ همته لأن همته أعلى منها ، فلم يُبْقِ في الدنيا أمنية يتمناها . ويتخذ الشاعر من اسم الأمير مجالاً للمدح فسيف الدولة مؤدّبٌ للدهر والسّيف أداة في يده لقطع هامات الأبطال ، ولقد كسا فكرَتُه حُلّة قشيبةً من اللفظ مما جعلها غرّةً من غرر شعره :

إنّ الهُمامَ الذي فخْرُ الأنامِ به ... خيرُ السيوفِ بكفّي خيرةِ الدّوَلِ
تمسي الأمانيُّ صَرْعى دون مَبْلَغِهِ ... فما يقول لشيءٍ ليتَ ذلك لي
انظُرْ إذا اجتمع السّيفانِ في رَهَجٍ ... إلى اختلافِهما في الخلْقِ والعمَلِ
هذا المُعَدُّ لريبِ الدهرِ مُنْصَلِتاً ... أعَدَّ هذا لرأسِ الفارسِ البطلِ

ويذكر الشاعر شجاعة الأمير وفرار الأعداء منه إلى رؤوس الجبال واجتيازه للدروب وتغلغله في بلاد الروم والرعب والخوفَ الذي دب في قلوبهم والذي لا ينحسر بانصراف الأمير عنهم لشدة وجلهم وكثرة ما رأوا من السّبي والغارة فإنّ الفتاة الرومية أصبحت في نومها تحذر السّبي والجَمَل الذي تتوقع أن تتسنّمه :

وما الفِرارُ إلى الأجبالِ من أسَد ... تمشي النّعامُ به في معقِلِ الوعِلِ
جازَ الدروبَ إلى ما خلفَ خرشَنَة ... وزالَ عنها وذاكَ الرَّوْعُ لَمْ يَزُلِ
فكلّما حَلَمَتْ عذراءُ عندَهُمْ ... فإنّما حَلَمَتْ بالسّبي والجَمَلِ

ويمعن الشاعر في مدح جود الأمير الذي لا يكدره مَنّ أو مماطلة ويطري شجاعته التي تخلع قلوب الأعداء فيقول :

وما ثناكَ كلامُ الناسِ عن كرَم ... ومَن يسدّ طريقَ العارِضِ الهطِلِ؟
أنتَ الجَوادَ بلا مَنّ ولا كَدَرٍ ... ولا مِطال ولا عَد ولا مَذَلِ
أنتَ الشجاعُ إذا ما لم يَطأ فَرَسٌ ... غيرَ السّنَوَّرِ والأشلاءِ والقُلَلِ
وردَّ بعضُ القَنا بعضاً مُقارَعَةً ... كأنّه من نفوس القومِ في جدَلِ
لازِلتَ تضرب مَن عاداك عن عُرض ... بعاجلِ النصر في مستأخَرِ الأجَلِ

والجدير بالذكر أن المتنبي لم يفتتح كل قصائده في المدح بالأطلال والنسيب بل أن أغلب قصائده السيفية خلت من ذكر ذلك كمدحه لسيف الدولة وقد عزم على الرحيل عن إنطاكيّة وقد كثر المطر بقوله :

رُوَيدكَ أيّها المَلِكُ الجَليلُ ... تأنَّ وعُدّه مما تُنيلُ[1]

---

(١) ديوان المتنبي ــ شرح البرقوقي (٣ / ١٣٧) .

وجودُكَ بالمَقامِ ولو قَليلاً فما فيما تجودُ به قليلُ

وقوله :

على قَدْرِ أهل العَزْمِ تأتي العزائمُ وتأتي على قدْرِ الكِرامِ المكارمُ[1]

وقوله :

أراعَ كذا كلّ المُلوكِ هُمامُ وسَحَّ لهُ رسْلَ الملوكِ غَمامُ[2]

وقوله :

عُقبى اليمينِ على عُقبى الوغى ندَمُ ماذا يزيدكَ في إقدامِكَ القسَمُ[3]

وأحياناً نرى المتنبي يستنكر استهلال القصائد بالنسيب ويسلك مسلك أبي نواس الذي يعد إمام هذا المذهب في عزوفه عن ذكر الأطلال والنسيب في افتتاح القصائد . ويعلّلُ لنا أبو الطيب زهده في النسيب بقوله :

إذا كانَ مدحٌ فالنسيبُ المقَدَّمُ أكُلُّ فصيح قال شعراً متيَّمُ ؟
لحبّ ابن عبد الله أولى فإنّـــهُ به يُبدأُ الذكرُ الجميلُ ويُختَمُ
أطعَنْتُ الغَواني قبل مطمحَ ناظري إلى منظر يصغرن عنهُ ويعظمُ[4]

ولقد أوحت شجاعة الأمير الحمداني وبطولته المعاني الرائعة والتي لا تضاهى روعةً وقوةً إلى المتنبي كقوله :

نهَبْتَ من الأعمارِ ما لوْ حوَيْتَهُ لهُنِّئْتَ الدّنْيا بأنّكَ خالِدُ

---

(١) المصدر السابق (٤ / ٩٤) .
(٢) المصدر نفسه (٤ / ١٠٩) .
(٣) المصدر نفسه (٤ / ١٢٩) .
(٤) الديوان (٤ / ٦٩) .

قال ابن جني لو لم يمدح أبو الطيب سيف الدولة إلاّ بهذا البيت لكان قد أبقى فيه وحده ما لا يُخْلِقُه الزمان [1] .

وللمتنبي في سيف الدولة روائع كثيرة من المدح كقوله :

الدَّهْرُ مُعتذرٌ والسّيفُ منتَظِرُ ... وأرضُهُم لكَ مصطافٌ ومرتَبَعُ
للسّبي ما نكحوا والقَتل ما وَلَدُوا ... والنّهبِ ماجمعوا والنّارِ ما زرعوا [2]

وقوله :

ورُبَّ جواب عن كتاب بَعَثْتَهُ ... وعنوانُهُ للنّاظِرينَ قَتامُ
حُروف هجاء الناس فيهِ ثلاثَةٌ ... جَوادٌ ورُمْحٌ ذابلٌ وحُسامُ [3]

وقوله في تهنئة سيف الدولة :

المجْدُ عُوفي إذ عوفِيتَ والكَرَمُ ... وزالَ عنكَ إلى أعدائِكَ الألمُ
وما أحُضّكَ في بُرْء بتهنِئَةٍ ... إذا سَلِمتُ فكلّ الناس قد سلموا

وقوله :

لكلّ امرىء من دهرِهِ ما تعَوَّدا ... وعادةُ سيف الدولةِ الضربُ في العِدا
وأنْ يكذِبَ الإرجافَ عنهُ بضدِّهِ ... ويُمسي بما تنوي أعاديهِ أسعَدا
ورُبَّ مُريدٍ ضرَّه ضُرَّ نفسَه ... وهادٍ إليْهِ الجيشُ أهدى وما هدى
ومُستَكْبِرٍ لم يعرِفِ اللهَ ساعةً ... رأى سيفَه في كفّه فتَشَهّدا [4]

لقد أحب أبو الطيب سيف الدولة وأخلص له الوُدَّ فكان شعره فيه

---

(١) اليتيمة (١ / ١٨٥) .
(٢) المصدر نفسه (١ / ١٩٥) .
(٣) المصدر نفسه (١ / ١٩٧) .
(٤) ديوان المتنبي ـ شرح العسكري ـ (١ / ٢٨١) .

صادقاً وكل ما أنتجت قريحته فيه : شعر رائع التصوير صادق الشعور جزل التعبير بالغ التأثير قوي الأسلوب سائر الأمثال .

ولا يشبه المتنبي — في قلة أو عدم بدء قصائد المديح بالنسيب من شعراء سيف الدولة سوى أبي فراس الذي ترك المقدمات جملة في مدائحه إذ كان يهجم على غرضه مباشرة . ولعلّ ذلك راجع الى قصر مدائحه التي لم تبرز غرضاً أصيلاً قائماً بذاته في ديوانه ولم يفرد لها الشاعر أكثر من أربع قصائد وجاء في غيرها مختلطاً بالفخر أو الأخويات .

وابتعد أبو فراس في مديحه عن التكسب وبهذا السبب اتسمت مدائحه بالصدق دون خروج إلى مبالغة أو تزيد ، وكانت طريقته أن يسبغ الفضائل الخلقية والنفسية والشجاعة والإقدام على ممدوحه :

أشِدَّةٌ ما أراهُ منك أم كرَمٌ ... تجودُ بالنفس والأرواح تصطلمُ
يا باذل النفس والأموال مبتسماً ... فما يهولكَ لا موتٌ ولا عدمُ
لقد ظننتكَ بين الجحفلينِ ترى ... أنَّ السلامة من وقع القنا تصمُ
نشدتك الله لاتسمح بنَفْس عُلاً ... حياةُ صاحبها تحيا بها أُمَمُ (١)

وقال مادحاً سيف الدولة :

قَدْ ضجَّ جَيشُكَ من طولِ القِتالِ ... وقد شكتكَ إلينا الخيلُ والإبلُ
وقد درى الرّوم مذ جاوزتَ أرضهمُ ... أن ليس يعصمهم سهْلٌ ولا جبَلُ
في كل يوم تزورُ الثغرَ لا ضَجَرٌ ... يثنيكَ عنه ولا شغلٌ ولا مَلَلُ
فالنّفسُ جاهدةٌ والعَينُ ساهِرَةٌ ... والجيشُ منهمكٌ والمالُ مبتذلُ (٢)

---

(١) ديوان أبي فراس (٣ / ٣٥٧) .
(٢) الديوان (٢ / ٢٩٧) .

ويصفه بالشجاعة والجود بالنفس في ساحات الوغى وبالسخاء والحلم والنجدة في ميادين السلم فيقول [1] :

إمامٌ مشبعٌ سَمْحٌ بنَفْسي يعزّ على العشيرة أنْ يُصابا [2]
وما ذاقتْ مَذاهِبَهُ ولكِنْ يهابُ من الحَميّة أن يُهابا
ويأمُرُنا فنَكْفِيهِ الأعادي همامٌ لو يشاءُ كفَى ونابا

وتظهر مدائحه لسيف الدولة صفة الرياسة والإمارة [3] :

ما زالَ يجحَدُها قومٌ وينكرها حتى أقرّوا رِفي آنافهم رَغَمُ
شُكْراً فقد وفّتِ الأيامُ ما وعدَتْ أقَرَّ ممتنعٌ وانقادَ مُعْتَصِمُ
وما الرّياسَة إلاّ ما تقَرُّ به شمسُ الملوكِ وتَعنو تحتهُ الأمَمُ

وتظهر في مديحه نزعة دينية تتجلى في أطراء التصدي للروم ودرء خطرهم .

وهَلْ عُذْرٌ وسيفُ الدّينِ رُكْني إذا لم أرْكَبِ الخُطَطَ العِظاما
وأقْفُو فعلَهُ في كلّ أمرٍ وأجعلُ فضلَهُ أبداً إماما
وقد أصبحْتُ منتسِباً إليهِ وحسبي أن أكونَ لهُ غُلاما [4]

ويتحدث أبو فراس عن سيف الدولة ويصفه بأنه بطل شجاع يبني الثغور ويحمي الإسلام والمسلمين من الأعداء :

مَساعٍ يضلّ القولُ فيهِنّ جُهْدَهُ وتهْلِكُ في أوصافِهِنّ الخواطِرُ
بناهُنّ باني الثّغر والثّغر دارسٌ وعامِرُ دينِ اللهِ والدّينُ واتِرُ [5]

---

(١) الديوان (٢ / ١٦) .
(٢) المشبع : الشجاع .
(٣) الديوان (٣ / ٣٦٦) .
(٤) الديوان (٢ / ٢٦٢) .
(٥) الديوان (٢ / ١١٦) .

ولم يفرد أبو فراس قصيدة المديح لممدوحه فقط بل كان يخص نفسه بجزء منها كقوله :

ألا قُلْ لسيفِ الدولةِ القرم : إنّني ... على كلّ شيءٍ غير وصفك قادرُ
فلا تُلْزِمني خطّةً لا أطيقُها ... فمجدُكَ غلاّبٌ وفضلُك باهرُ
ولو لم يكنْ فَخْري وفخرك واحداً ... لما سار عَنّي بالمَدائحِ سائرُ
ولكنّني لا أُغفل القولَ عن فتىً ... أساهمُ في عَلْيائِهِ وأُشاطِرُ
وعن ذكْرِ أيّامٍ مضتْ ومواقِفٍ ... مكاني منها بيّنُ الفضْلِ ظاهِرُ (١)

ومن شعراء المدح البارزين في البلاط الحمداني أبو العباس أحمد بن محمد النامي وكانت منزلته عند سيف الدولة تِلْوَ منزلة المتنبي (٢) . ولقد استهلّ بعض قصائد المدح بالنسيب كأبي الطيب ، فقال في قصيدة يمدح بها سيف الدولة (٣) :

إلمَامه بمغـاني دارِهِ لمَمٌ ... إذ لا إمامَةَ في دارٍ لها أمَمُ
بأي حكم لأيام الفِراقِ نأتْ ... بناعِبٍ كاعبٍ والبينُ يحتكِمُ ؟
عقلْتُ عيساً كاني كنت حاسدها ... بدارِ سلمى وتِرْبُ الدّارِ مستلمُ
إحدى الحِسان أساءت بي وقد صرمَتْ ... يومَ الحِمى وهواها ليسَ ينصرمُ

ثم يربط الشاعر هذه المقدمة بالمديح ربطاً جميلاً حسناً :

كأنّ قلبي مُعارٌ للنّوى جزَعاً ... من قلْبِ قرنٍ عليٍّ وهو منهزمُ
كأنّه أجلٌ أو طَرْفَهُ رجَـلٌ ... أو سيفَهُ قدَرٌ في الروحِ يحتكِمُ

---

(١) الديوان (٢ / ١١٥) .
(٢) اليتيمة (١ / ٢٢٥) .
(٣) شعر النامي ص (٧٢) .

ويمدح الشاعر قوة الأمير وبأسه وشجاعته ويظهر مذهبه في الشعر وولعه بالطباق والجناس :

يا مُظمىء الخيل أو تروي ذوابلَه والخيلُ تشربُ من أشداقِها اللّجمُ
النّصْرُ أسرجَها والعزْمُ ألْجَمَها والحزمُ أمسكَ بالأسراجِ لا الحُزُمُ

ويصف المعركة التي خاض غمارها الأمير ونال فيها النصر وصفاً رائعاً ويعرض لنا صوراً حية ناطقة فالأفق أصبح قناً والأرض أضحت دماً [1] :

قالَ النّهارُ له والشمسُ مغْمَدَةٌ وللمنايا شُموسٌ غِمْدُها القمَمُ
هذا عَجاجٌ فأينَ الأفْقُ وهو قَناً ؟ وتلكَ خيلٌ فأينَ الأرضُ وهي دمُ
في ناظِرِ الشمسِ ان عنتْ له رمَدٌ ومِسمَعُ الرَّعْدِ إنْ أصغى له صممُ
يردّها ونِظامُ المُلْكِ متّسقٌ والموتُ في خَرَزِ الأعناقِ ينتظمُ

وينتقل الشاعر إلى مدح أخلاق سيف الدولة وصفاته المعنوية ويبالغ في ذلك مبالغة كبيرة فيقول [2] :

اللهُ أعطاكَ أقسامَ الفَخارِ فَما خلْقٌ يساميكَ مذْ خيرتْ لك القسمُ
لو كان يرضى لكَ الدّنيا لما فنيتْ ونلتَ فيها خُلوداً أنتَ والنِّعَمُ

ويشيد بالأمير الذي نصر الدين وهدم قواعد الشرك وحطّمها بحد سيفه فيقول [3] :

بحدّ سيفك سيف الدولة انحَطَمَتْ قواعدُ الشركِ والأرواح تنحطمُ

---

(١) شعر النامي ص (٧٥) .
(٢) المصدر نفسه ص (٧٣) .
(٣) المصدر نفسه ص (٧٦) .

يحدّثُ الذئبَ ذئبٌ وهو مُبْتهِجٌ ويخبرُ النسر نَسْرٌ وهو مُبتسمُ
قد أرضعتْكَ ثديُّ الأرضِ درَّتِها ورُمحكَ ابنُ رضاعٍ ليس ينفَطِمُ

ويمدح الشاعر بني حمدان قوم الأمير وأهل الملك والعدل والحمد فيقول[1]:

ألسْتَ من مَعشرٍ قامَتْ مَدائحهُم على القَنا وهي بالأرواح تنتظمُ
من آل حمدانَ حيثُ الملكُ مقتبلٌ والمالُ مقتسمٌ والحمدُ مُغتنمُ
قومٌ إذا حَكَمُوا يوماً لأنفسِهم جارَ السّماحُ عليهم في الذي حكموا
أمِنْ عُلاً أم ندىً ؟ ادعوك أم بهما فأنتَ ذو الحَيا والصَّارمُ الخَدِمُ

وللنامي كثير من روائع المدح في سيف الدولة لم يبدأها بالنسيب بل طرق المدح مباشرة دون مقدمات كقوله[2]:

إذا ما عَليٌّ أمطرتْكَ سماؤهُ رأيتَ العُلا أنواؤها تتَحَلّبُ
يُرَجّى ويخشى ضرّهُ وهو نافعٌ كذا البحرُ في آذيّهِ متهيّبُ
يروعُ ويبدو الأنسُ منه كأنّه الـ ـهَوى لذْعُهُ بينَ الجوانحِ يعْذُبُ

وقوله[3]:

خُلِقْتَ كما أرادَتكَ المَعالي فأنت لمنْ رجاكَ كما يريدُ
عجيبٌ أن سيفَكَ ليس يَرْوى وسيفُكَ في الوريدِ لهُ وريدُ
وأعجبُ منه رمحكَ حينَ يُسْقى فيصحو وهو نَشْوانٌ يَميدُ

---

(١) المصدر نفسه ص (٧٦ ــ ٧٧) .
(٢) شعر النامي ب (٣٨) .
(٣) اليتيمة طبعة ١٩٣٤ (١ / ١٤) .

ومن الشعراء الذين ازدان بهم البلاط الحمداني وبرعوا في المدح الشاعر السرّيّ الرفّاء الذي بلغت سيفياته نحو سبع وثلاثين قصيدة بدأ أغلبها بالغزل .

وينهج الشاعر في المديح منهج سابقيه من الشعراء الفحول كالبحتري وأبي تمام ويبدو تأثره إلى درجة كبيرة في شعر المتنبي وأبي العباس النامي من حيث المعاني والألفاظ وقصيدة المديح لديه تشتمل على أغراض وفنون أخرى كالوصف والشكوى والتظلم والاعتذار والعتاب والفخر والهجاء والحكمة .

قال يمدح سيف الدولة ويعتذر إليه من انصرافه عن حلب بغير إذنه واستهل قصيدته في غزل رقيق برع فيه :

أؤنّبُ الشوقَ فيهم وهو يضطرمُ وأستقلّ دموعَ العينِ وهي دَمُ
للهِ أيّ شُموسٍ منهم غَرَبَتْ بغُرَّبٍ وبدُورٍ ضمّها إضَمُ[1]
بيضٌ تخبّرُ عنها البيضُ لامعةً بأنّهُنّ نَعيمٌ دُونَهُ نِقَمُ
أهْدَتْ لهنّ على خَوْفٍ إشارتُنا تحيّةً رَدَّها العُتّابُ والعَنَمُ
هي الظّباءُ ولي مِن ربْعِها حرَمٌ وهي الشّفاءُ ولي من لحظها سقَمُ
جادَتْكَ مذْهبَةً بالبَرْقِ مُجْلَبَةً بالرّعْدِ تَرْبَدُّ أحياناً وتبتَسِمُ
كأنّها وجنُوبُ الرّيحِ تَجْنُبُها بحرٌ يسدّ فضاءَ الجوّ ملتطمُ[2]

وينتقل الشاعر من هذه المقدمة الغزلية إلى المدح انتقالاً رائعاً فيقول[3] :

كأنّها إذْ تولّتْ وهْيَ مُقْلِعَةً جيشُ العدُوّ تولّى وهوَ منهزمُ

---

(١) غرب : جبل بالشام ، وإضم : واد بالمدينة .
(٢) ديوان السري ص (٢٤٤) .
(٣) ديوان السري ص (٢٤٥) .

عادَتْ حُماتُهم سفعاً خُدودُهُمْ كأنّما سَفَعَتْ أبشارَها الحَمَمُ
ولّتْ وبيضُ ابنِ عبدِ اللهِ تنشدُها كالطّيْرِ روّعها من بارقٍ ضَرَمُ
أطفأتَ بالكرّ والإقْدامِ نارهُمُ وقبل كانتْ على الإسلامِ تضطرم
دفعتهُمُ بغَرارِ السيفِ عن بَلَدٍ رَحْبٍ يدافِعُ فيه سيلكَ العِرَمُ

وينتقل الشاعر ليمدح في الأمير ذوده عن الإسلام وحمايته وتحطيمه للشرك وأهله فيقول [1] :

أضحى بنجدتكَ الإسلامُ معتصماً وأنتَ باللهِ والمَهْدِيّ مُعتصمُ
تُزْجي القَنا والمنايا فيهِ كامِنَةٌ فتحْطِمُ الشرْكَ أحياناً وينحطمُ
أعجِبْ به حينَ يَدْعوه لمَلْحَمَةٍ أصَمُّ ليس به عن دعوةٍ صممُ
كأنّها والعَوالي مِلءُ ساحَتِها مغارِسُ الخَطّ فيها للقَنا أجَمُ
فالغَزْوُ منتظمٌ والفَيْءُ مُقْتَسِمُ والدّينُ مُبتسمُ والشّرْكُ مصطلمُ

ويذكر مناقب الأمير من سماحة ورحمة وكرم فيقول :

لا يستَعيرُ لهُ المُدّاحُ مَنْقَبَةً ولا يقولون فيهِ غيرَ ما علِموا
رأى السّماحَ فطيماً فاشرأبَّ لهُ وخيرُهُ من رآهُ وهْوَ محتَلِمُ
رَحْبٌ على آمِليه ظِلُّ رحمتِه وليس بينَهُمُ قُرْبَى ولا رَحِمُ
عمّتْ أياديهِ إذْ عَمّ الحَيا بَلَداً إنّ التي عَمّتِ الدّنيا هيَ الكَرَمُ
هو الحَيا والغِنى ما انهَلّ عارِضُهُ وهو الرَّدى ما ارتدى بالسيف والعدَمُ

وتسيطر النزعة الدينية على نفس الشاعر وتتنزّى أحاسيسه وتثب عواطفه فيخاطب الأمير قائلاً [2] :

---

(١) ديوان السري ص (٢٤٥) .
(٢) ديوان السري ص (٢٤٦) .

رَمَى الصليبَ وأبناءُ الصَّليبِ فَلَمْ تُغمَدْ صوارِمُهُ إلاّ وهم رِمَمُ
بالبيضِ تُنكرها الأغمادُ مغمدَةً والجُرْدِ تعرِفُها الغيطانُ والأكمُ
يا صارمَ الدّينِ إن الدين قد عَلِقتْ كفّاهُ منكَ بحبْلٍ ليسَ ينصرِمُ

وينتقل الشاعر من مدح الأمير إلى الاعتذار له فيبرر عذره ويبين سبب انصرافه عن حلب بغير إذن الأمير ويطلب منه الصفح والعفو [1] :

أشيمُ عَفْوَكَ علماً أنْ ستَنْشرُهُ عليَّ تلكَ السّجايا الغُرّ والشّيَمُ
كأنْ انصرافيَ جُرْماً لا كِفاءَ لهُ عندي وأيّ لبيبٍ ليس يجترمُ
رأيٌ هَفا هَفوةً زُلّتْ لها قدَمي وما هفا الرّأيُ إلاّ زَلّتِ القَدَمُ
هو اضطِرارٌ أزالَ الاختيارَ وهلْ يختارُ ذوُ اللّبّ ما يردى وما يَصمُ
وكيفَ يجتنبُ الظمآنُ موَرُدُهُ عمداً إذا راحَ وهْوَ الباردُ والشّبِمُ
صَفْحاً فلو شق قلبي عن صحيفتيه لظلَّ يقرأُ منهُ الخوفُ والنّدَمُ

وتظهر النزعة الدينية في كثير من قصائد مدحه لسيف الدولة وشأنه في ذلك شأن أبي فراس وغيره من شعراء العصر وذلك حيث يقول [2] :

وسيف من سيوفِ اللهِ مُغْرَى بسفْكِ دمِ العِدا منه الفِرارُ
وبدْرٌ ما استسرَّ البدرُ إلاّ تعالى أنْ يحيطَ بهِ السِّرارُ
بعثتُ إلى الثّغور سحابَ عدل وبذل لا يغب له انهمارُ
وأسكَنَتِ السّكينةُ ساحتيها فقَرَّتْ بعدَ ما امْتنَعَ القَرارُ

وقوله مخاطباً سيف الدولة [3] :

---

(١) ديوان السري ص (٢٤٦) .
(٢) الديوان ص (٢٣٣) .

يا مجيبَ الإسلامِ حينَ دَعاهُ ومُقيلَ الإسلامِ حينَ استقالا
وعدَ الرومَ سيفُ بأسك وعَداً عدِموا الخُلفَ بعدَهُ والمِطالا
نزَلوا منْزِلاً من الحينِ ضَنْكاً فجعلْتَ الرَّدى لهمُ إنْزالا

وقوله [1] :

أسيْفَ الله أنَّ الناسُ طُرّاً لِراجي العُرْفِ والدّنيا شآمُ
أقمنا لا نَريمُ وسالَمَتْنا بساحتك الخطوبُ فما تُرامُ
فكلُّ زَمانِنا أبــداً رَبِيعٌ وكلّ شُهورِنا الشّهرُ الحرامُ

وقوله [2] :

ووصَلْتَ للإسلامَ بأسكَ مُقدِماً بضياءِ عزمكَ فاستنارَ ظلامُهُ
في موقف صبغتْ سيوفُك أرضهُ بدمِ العُداة فما يثورُ قُتامُهُ

ومن الشعراء الذين وفدوا على الأمير الحمداني وعاشوا في كنفه وتفيئوا ظلالَه ومدحوهُ بغررِ شعرهم وذوبِ أنفسهم ورائعِ نتاجهم أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن نُباتة السعدي الذي قدم على حلب شاباً يافعاً فعاش في بلاطِ الأمير فترة من الزمن ، وله فيه مدائح كثيرة منها ما صنع في العراق وأرسله إلى الأمير قبل قدومه عليه ومنها ما صُنع في حلب .

وتمتاز مدائح ابن نباتة السعدي بأنها ابتعدت عن مقدمات الأطلال والنسيب فهو يمدح سيف الدولة مثلاً ويذكر الفدا بملَطْية فيقول [3] :

---

(١) الديوان ص (٢٥٣) .
(٢) الديوان ص (٢٦٢) .
(٣) ديوان ابن نباتة المخطوط بدار الكتب ص (١٦) .

أقِمْ في القولِ من نفسي دَليلاً فإنَّ الصدْق ما زرع القُبولا
نُطيعُ اللهَ في خَوْضِ المنـــايا وسيفَ الدَّولة الملكَ الجَليلا

ويصف انتصارات الأمير المتلاحقة وهزائم الروم ويتلاعب بالمعاني تلاعباً سهلاً فالحصون الرومية تُنادي نداهُ وتبدل ساكنيها وتمنحه جزيلا كما تعود الأمير أن يمنح العطاء العميم [1] :

إذا ما أرسلوا جيشاً إلينـــا ردَدْنا من دِمائِهِمُ رسولا
يسيلُ إليهم فـــإذا أتـــاهُمْ رأوا فيهِ الجماجم والحصيلا[2]
وقال لنا الزَّمانُ ظلَمْتُموهمْ فقُلْنا للزَّمانِ دَعِ الفُضولا
فطوَّفَ في بلادِ الرّومِ حتّى توَهّمْناه قد ضَلَّ السّبيلا
وكيف يضلّ في سُبُل المعالي فتىً جعَلَ الحُسام لهُ دَليلا
كأنَّ حصونهم نـــادتْ نَداهُ أو اختارَتْ بساكِنها بديلا
فأعْطَتْهُ الذي تحْوي عَطاءً جزيلاً مَلَ ما يُعْطي جزيلا
كأنَّ بلادَهم ضمّتْ عليهِ جوانحِها مخافةَ أنْ يزولا

ويصف خيل الأمير الضامرة وصفاً رائعاً ويسوق التشبيهات الجميلة الأخّاذة وذلك حيث يقول :

كأنَّ الخَيل من مَرَحٍ ولهْوٍ تُنازِعُهُ إذا نزل الرَّحيلا
دِقاقٌ كالأهِلَّةِ في الأعادي تعَلَّمُ من ذوابلِهِ النُّحولا
يخوّضُها الفُراتُ فتىً يُلاقي بوجه الموتِ في الغمراتِ سيولا

---

(١) الديوان المخطوط (١٧) .
(٢) الخصيل : جمع خصيلة وهي كل عصبة فيها لحم غليظ .

ولوْ أنَّ الفُراتَ عصَى عليهِ لرَدَّ السَّيْلُ منه أنْ يَسيلا

ويخلص الشاعر إلى الفداء ويذكر أن الأمير بأموال الروم أطلق سراح الأسرى وفادى بهم وأن ألسنتهم تلهج بالثناء والحمد فيقول [1] :

فسالمَهُمْ ولمْ يترُكْ فتَـاةً وحاربَهُمْ ولم يترُكْ حليلا
ومنْ أموالهم فَكَّ الأسارى وعن أزواجهم أعطى البعُولا
يراهُ كلّ مأسُورٍ فَيَدْعُو ألا حسبي به وكفَى وكيلا
فداؤك مَن فديْتَ منَ البرايا وإنْ كانوا لأنْ تُفدى قليلا
فأنْتَ خَلَقتهم خَلقاً جديداً وصيَّرْتَ السَّماح بهم كفيلا

وللشاعر في مدح سيف الدولة صور من آيات الشعر البارعة ومن بديع مدحه فيه قوله في ذم الروم والأسرى منهم وذكر فضل الأمير عليهم بعد أسرهم حتى أن ملكهم تمنى أن ينال حظهم وأنه معهم في أسر الأمير :

قد كنتَ تأسرَهم بالسّيْفِ مُنصلِتاً فصرتَ تأسرهم بالخوفِ والوَهَلِ
مَن يزرع الضربَ يحصدْ طاعة عجباً ومَن يربِّي العُلا يأمَنْ من الثَّكَلِ
كانَتْ سَحابكَ فيهم كلُّ بارقَةٍ حمراء تهطلُ بالأيدي على القُلَلِ
فاليومَ سُحبُكَ فيهم كلُّ بارقَةٍ غرّاء تهطلُ بالأموالِ والحُلَلِ
حتّى تمنّى مليكُ الرومِ حَظَّهُمُ وأنّهُ معَهُمْ في الأسرِ لم يزَلِ [2]

ويمدح كرم الأمير وعطاءه بمعان خالدة تعد من أروع ما قيل في هذا المجال :

---

(١) الديوان المخطوط (١٧) .
(٢) اليتيمة (٢ / ٣٨٨) .

قد جُدتَّ لي باللُّهى حتى ضجرتُ بها ... وكدتُ من ضجري أُثني على البُخَلِ
إنْ كنتَ ترغبُ في أخْذِ النّوالِ لنا ... فاخْلَقْ لنا رغبةً أولا فلا تُنَلِ
لمْ يُبْقِ جودُكَ لي شيئاً أؤمّلُهُ ... تركْتَني أصحبُ الدّنيا بلا أملِ

ومن شعراء سيف الدولة الذين عاشوا في رحابه واستظلوا بظله الوأواء الدمشقي الذي يعد من أشهر شعراء عصره في الخمريات والروضيات والغزل . ولقد كان مذهبه في المدح مذهب الطريقة القديمة إذ يستفتح القصيدة بالغزل مع الإطالة ثم يذكر صفات ممدوحه من كرم وشجاعة وسخاء وبطولة ، وقد غلب على مديحه نزعة البديع والمحسنات اللفظية . ومن قصائده في مدح سيف الدولة قوله [1] :

قِفوا ما عليكُمْ من وقوفِ الرّكائبِ ... لنبذلَ مذخورَ الدّموعِ السّواكبِ
وليلٍ طويل كان لمّا قَرَنْتُـــهُ ... برؤيَةِ مِنْ أهوى قصيرَ الجوانبِ
كخَفْقَةِ قلبٍ أو كقبلةِ عاشقٍ ... على حذَرٍ أو رَدِّ طرْفِ المُراقبِ
كواكبُهُ تَبْكي علَيْهِ كأنّمـــا ... ثكلْنَ الدّجى أو ذقنَ هجرَ الحبائب
يبَرّحُ بي وجْدي إذا لاحَ كوكَبٌ ... كانَّ به وجْداً ببعضِ الكواكبِ
سأهْبِطُ من بحْرِ اللّيالي مَذاهِباً ... متى قَصرْتَ بي في هواهُ مذاهبي

وهكذا وبعد أن وقف الشاعر على الأطلال وتحسّر عليها لما أصابها من نوائب وتحدّث عن المحبوبة ووصف طول الليل بأوصاف جديدة لطيفة فهو ليل طويل كخفقة قلب أو كقبلة عاشق والكواكب تبكي وكأنّهن قد ثكلن الدّجى واستعمل استعارات في غاية الجمال . ثم انتقل الشاعر إلى مدح شجاعة الأمير وبطولته وحذقه لفنّ الحرب بعد أن أطالَ في الغزل حتى كادت قصيدته تكون غزلاً . . . لا مدحاً فقال :

---

(١) ديوان الوأواء الدمشقي (٢٥ ــ ٢٦ ــ ٢٧) .

هُوَ السّيْفُ إلاّ أنّهُ ليس نابياً إذا عاقهُ المقدارُ عن كل ضارب
إذا شاجروهُ بالرّماحِ تشاجَرَتْ نفوسُ المنايا في نفوسِ الكتائبِ
وتَصْبُغُ أيدي النّقع أيدي خيولِهِ بمُحْمَرّ تُرْبٍ من نجيعِ التّرائبِ
وكم خاضَ نَقْعاً يمطُرُ الهامَ وقعَهُ إلى الموْتِ في صَفّيْ قَنَاً وقواضبِ

ومن بديع شعره وجيد تشبيهه قوله في مدح سيف الدولة :

ما أرطَبَ العيشَ في ذُراكَ رما أهْنا النّدى في جنابك اللّيّنِ
علوْتَ في المَجْدِ كلَّ مَكرُمَةٍ كنتَ بها ثالثَ السِّماكَيْنِ
مَنْ قاس جودَكَ بالغَمامِ فَما أنصفَ في الحكمِ بينَ شكلَيْنِ
أنْتَ إذا جُدْتَ ضاحِكٌ أبَداً وهوَ إذا جادَ دامعُ العَينِ [1]

وقوله [2] :

إذا أبرَقَتْ ضرْباً سيوفُكَ أمطرتْ رؤوس الأعادي فوق أرضٍ المصائبِ
بما انهلّ من كفّيك من ذلك النّدى وما حملَتْهُ من قَنا وقواضبِ
أرِحْها قليلاً كي تَقَرَّ فإنهـــا من الضرب أمستْ ناحلاتِ المضاربِ
تمُرّ بكَ الأيامُ وهيَ شَواهِدٌ بأنّكَ ما أبقيتَ عتباً لعاتِبِ

ومن الشعراء الذين برعوا في مدح سيف الدولة الشاعر الببّغاء ، ولقد سلك في بعض من قصائد المدح مسلك أغلب شعراء المدرسة الحلبية من ذكر الأطلال في المقدمة ثم الإشادة بشجاعة وبطولة الأمير كقوله [3] :

---

(١) ديوان الواواء ص (٢٢١) .
(٢) المصدر نفسه ص (٢٣) .
(٣) نشوار المحاضرة (١ / ٢٧٩) .

سقَتِ العِهادُ خليط ذاكَ المَعْهَدِ ريّاً وحيّا البرقُ برقةَ ثَهْمَدِ
في جَحْفَلٍ كالسّيلِ أو كاللّيلِ أوْ كالقطرِ صافح موجَ بحرٍ مُزْبَدِ
فكأنّما نَقَشَتْ حوافِرُ خَيْلِـه للناظرينَ أهِلّةً في الجَلْمَدِ
وكأنّ طرْفَ الشمس مطروقٌ وقَدْ جعلَ الغُبارَ لهُ مكانَ الإثْمِدِ

ثم ينتقل إلى وصف اللواء فيصفه وصفاً بارعاً يكاد ينفرد به ويرسم بكلماته لوحة فنية ساحرة الجمال فاللواء يناجي الرياح الرّكدّ وتجيبه أنفاسها بتصعد وهو قلق دائب الحركة وكأن الجو قد ضاق به فيقول :

ومملَّكٍ رِقَّ القَنا مُسْتَخرِجٍ باللّطْفِ أسرارَ الرِّياحِ الرُّكَّدِ
خُرْسٌ يناجيها فتَفْهَمُ نُطْقَهُ وتُجيبُهُ أنفاسُها بتصعُّدِ
قَلِقٌ كأنّ الجوَّ ضاقَ به فَمَا ينْفَكّ بينَ تَوَثُّبٍ وتَهَدُّدِ

ويعود لمدح سيف الدولة كرة أخرى فيقول :

وكـأنّ هِمّةَ ربّهِ قالتْ لَهُ طُلْ وارْقَ في درَجِ المعالي واصْعد
إنّ المحامِدَ رتبَةٌ لا يبلغُ الـ إنسانُ راحَتَها إذا لمْ يُجْهَدِ
مَنْ لمْ تبَلّغْهُ السّيادةَ نَفْسَهُ دُونَ الأبوّةِ لم يكُنْ بمُسَوَّدِ

والببغاء لم يبدأ كل قصائد المديح بذكر الأطلال أو الغزل إذ أنه كان في كثير من قصائد هيدخل إلى المدح دون مقدمات كقوله في مدح سيف الدولة ــ لفدائه الأسرى من المسلمين سنة خمس وخمسين وثلثمائة [1] .

وفدَيْتَ من أسر العدوّ معاشراً لولاك ما عرَفوا الزمانَ فِداءَ

---

(١) نشوار المحاضرة (١ / ٢٨) .

كانوا عبيدَ نداكَ ثمّ شريتهم فغدَوْا عبيدكَ نعمةً وشراءَ
والأسرُ إحدى الميتتينِ وطالما خلَدُوا بهِ فأعدتهم أحياءَ

ومن شعراء بلاط سيف الدولة الذين برعوا في الشعر ونالوا شهرة به شاعر الطبيعة الصَّنَوْبَريّ الذي كان يسمّى حبيباً الأصغر لجودة شعره — كما يقول ابن رشيق [1] . والذي امتاز شعره بحسن الموسيقى والتشبيهات البارعة .

ولقد اتصلت حبالُه بسيف الدولة قبل أن يَلي حلب وقد استحوذتْ بطولات هذا الأمير الفارس على إعجاب الشاعر فأنشأ فيه قبل استيلائه على حلب قصيدته الرائعة [2] :

بأيمَنِ طائرٍ واصَحّ فألٍ وأسعَدِ كوكَبٍ يغزُو الأميرُ
يؤيّدُ جَيْشَهُ بجيوش نَصْرٍ تسيرُ على الجناحِ إذا تسيرُ
فتَبْلُغُ حيثُما بلغْتَ مُناهُ ويلقانا ببُشْراهُ البَشيرُ
أميرٌ أوْسَعُ الأمَراء صَدراً إذا ضاقَتْ بما تَسَعُ الصّدُورُ

ويمدح قبيلة الأمير قائلاً :

أيا ابنَ القائمينَ بكلّ دَهْرٍ إذا قعدتْ ولم تَقُمِ الدّهورُ
متى عُدّ الكواكبُ من معَدٍّ فإنّكُمُ شُموسٌ لا بُدُورُ

وينتقل إلى مدح بطولة الأمير وحذاقته في الحرب وتمرسه في القتال وبلائه في الروم :

تركتَ الروم : بعضُهم قَتيلٌ يمُجُّ دماً وبعضُهم أسيرُ

---

(١) العمدة (١ / ٦٤) .
(٢) ديوان الصنوبري ص (٧٤) .

ولمّا طارَ بأسُكَ أمسِ فيهمْ هَفَوْا جزَعاً كما تهْفو الطّيورُ
فقد ماتوا وما قُبِرُوا ولكنْ كأن بيوتَهم لهُمُ قُبُورُ
لسَيْفِ الدولة السيفُ الذي للْـ ـمَنايا في غِرارَيْهِ زَئِيرُ
قَراهُ جَنّةٌ خضراءُ حُفّتْ بحَدَّيْهِ وحَدّاهُ السّعيرُ
ومُجْتاحٌ بيُمْناهُ الأعادي كما اجْتاحَ الكَراوينَ الصّقورُ
وفألُ الشّعْرِ ليسَ لهُ تَراخٍ تراخَتْ أو تقاربَتِ الأمورُ

ولقد أنشأ هذه القصيدة قبل استيلاء سيف الدولة على حلب بدليل تمجيده لغزواته للروم لأن سيف الدولة منذ دخوله إليها في سنة ٣٣٣ هـ حتى وفاة الصنوبري ٣٣٤ هـ لم يقم بأية غزوة للروم وذلك لانصرافه لتوطيد أمور الدولة .

ولقد سلك الصنوبري في مدحه مسلكاً تقليدياً وافتتح بعض قصائده بالنسيب والغزل الرقيق كقوله في مدح سيف الدولة [1] :

شَخَصوا وحشْوُ خدورهم أشخاص أشباهُها الأغصانُ والأدْعاصُ
واعْتاصَ بعدهُم العزاءُ ولم أزَلْ من قبلُ أدْعوهُ فلا يعتاصُ [2]

إلى أن يقول :

لِمَ في عِراصِ الغانياتِ يَلُمْنَنا وقُلوبُنا للغانياتِ عِراصُ
مِنْ كلّ خالصةِ الجمال استأسرَتْ منّا نفوساً ما لهُنَّ خَلاصُ
حَسْناءُ يُقْنَصُ حُسْنُها ألْبَابَنا ما الحُسْنُ إلاّ حسنُها القَنّاصُ

---

(١) ديوان الصنوبري ص (٢٣٤ ــ ٢٣٨) .
(٢) اعتاص : صعب ولم يتيسر .

وينتقل إلى مدح كرم الأمير وسجاياه الحميدة انتقالاً جميلاً :

هي إنْ غَدا الحُسنُ المَصاصُ لها فلي فَخْرٌ بسيّدنا الأمير مُصاصُ (١)
غَدَتِ العُلا وأبُو العُلا أعياصَهُ يا عِزَّ ما تُعْزى بهِ الأعياصُ (٢)
واستخلصَتْ لسيوفِ سيف الدولة الـ ـدّنْيا هنا ها ذاكَ الاستخلاصُ
أبَداً تَحيصُ الوهي كفّاهُ ومـا أوْهَتْهُ كفّاه فليس يُحاصُ (٣)
مِن رأيهِ سيفٌ يصولُ به ومِنْ تدبيرِهِ دِرْعٌ عليه دِلاصُ (٤)

ولم يكن هؤلاء الشعراء هم وحدهم الذين مدحوا سيف الدولة ، فغيرهم كثيرون ممن أفاض عليهم سيف الدولة فصدحوا بأروع آيات المديح وجادوا بأروع صنوف الثناء من أمثال النّاشىء الأصغر والسّلامي والزّاهي والخالديّين وغيرهم .

ونخلص إلى القول إن فن المديح في بلاط سيف الدولة كان فنّاً تقليدياً سلك به الشعراء مسلك الأقدمين من ذكر للأطلال واستهلال بالنسيب والغزل ولكنّ الشعراء لم يلتزموا ذلك دائماً بل في كثير من القصائد قصدوا إلى المديح دون مقدمات كما أن فن المديح كان يشتمل على أغراض وفنون أخرى كالوصف والشكوى والتظلم والعتاب والفخر والاعتذار والهجاء والحكمة . كما أن معانيه كانت تدور حول الشجاعة والبطولة وشرف الأصل والجود وتمجيد العروبة .

ولقد أتحفنا شعر المديح بصوَر رائعة لحياة الحمدانيين الحربية خصوصاً ما كان بينهم وبين بيزنطة عدوة العرب والإسلام ولقد ظهرت روح العصر في فن المديح .

---

(١) مصاص الشيء : سره والخالص من كل شيء .
(٢) العيص : الاصل والمنبت والجمع أعياص .
(٣) تحيص : تخيط .
(٤) دلاص : الدرع السابغة .

الفخر

الفَخرُ من أكثر فنون الأدب دلالة على فطرة الإنسان ، فهو صدى تطلع النفس إلى ذاتها وحديث الشاعر عما يخصه . مُعظماً لصفاته ومُشيداً ومُظهراً ما فيها من جمال .

والفخر هو الإشادة بالصفات الحميدة وتمدّح الشاعر بفضائله الخاصة وتبيان مزاياه الكريمة ، من أصل ونسب وبطولة وشجاعة وأعمال وأقوال وما شابه ذلك .

والفخر نوعان : فخر فردي يتحدث به الشاعر عن نفسه فيجلو خباياها ويكشف خفاياها وأسرارها ويطري مزاياها وأخبارها .

وفخر جماعي يعدد به مناقب قومه أو حزبه وينوه بجهودهم وعظيم شأنهم.

ولقد رافق الفخر الشعر العربي منذ جاهليته وسار معه إلى العصر العباسي حيث كان الانقلاب العظيم في جميع جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية وجرى التمازج بين العقل العربي والعقول اليونانية والفارسية والهندية فاتسعت الآفاق وسمت المدارك وتعددت سبل الحضارة وتنوعت فنون المعرفة . وتأثر الفخر كغيره من فنون الشعر بهذه الحضارة الزاهرة فإذا به يدور

حول العقل والرأي والحكمة ، وحول الشجاعة والحزم في الأمور والأصل العريق والشاعرية المبدعة [1] .

وبرز فن الفخر قوياً في بلاط سيف الدولة وكانت ظروف الدولة الحمدانيّة تشجع على بروزه في إمارة عربية بين مجموعة الإمارات الأعجمية العديدة ، وهي إمارة فتيّة جددت المعاني العربية الأصيلة من شجاعة وحرب وفروسية ونخوة وسخاء .

وكان قادة الدولة الحمدانية أدباء وشعراء وفرساناً وكانوا يحسنون الشعر ويتذوقون الأدب فكان لا بد أن يتحدثوا في أشعارهم عن بطولاتهم في حروبهم فيفتخروا بها ويعتزوا بشجاعتهم وقوتهم وبني قومهم .

وكان أبو فراس زعيمهم في هذا المجال ، وكان الفخر غرضاً أصيلاً في شعره واحتل مكاناً بارزاً في ديوانه وأصبح له المقام الأول بين سائر فنونه الشعرية الأخرى . ولا عجب في ذلك فقد تعددت لديه مواقف الفخر . فالشاعر أمير من أمراء آل حمدان وحاكم لثغر من أهم الثغور وقائد للجيوش هذا بالإضافة إلى عراقة النسب ومكانة الأسرة وموهبة الشعر التي حباه الله بها . ومزج أبو فراس بين الفخر وغيره من الفنون الأخرى مثل الغزل والشكوى والأخويات .

ولقد تعددت مجالات الفخر في شعر أبي فراس فافتخر بقومه ونسبه وعلو همته وحسن بلائه في القتال كما افتخر بشعره وشاعريته . وافتخر بشجاعة قومه بني حمدان فقال :

إنّي امرؤٌ ببني حمدانَ مُفتخرٌ خَيْرِ البريّةِ أجداداً وأسلافا

---

(١) الفخر والحماسة : حنا الفاخوري ، ص (٢٣) .

إنّي لمِنْ معشر ضُرَّ جـارُهُمُ ولا رأى عندهم بؤساً ولا خافا
إنْ حالفَتْنا المعالي فهي قد علِمَتْ كانت لآبائنا من قبلُ أحْلافا [1]

ووصف أبو فراس قومه بأنهم ملوكَ أبناء ملوكٍ ، وهم أصحاب المجد وأركانه لا يحسنون غير اصطناع العرف والإحسان ، يغنون الفقير ويفكّون الأسير من قيده فقال [2] :

وإذا فخرْتُ فخَرْتُ بالشمّ الأُلى شادوا المكارمَ من بَني حمدانِ
نحنُ الملوكُ بنو الملوكِ أُولي العُلا ومعادنُ السّاداتِ من عَدْنانِ
والمَجْدُ يعلَمُ أننا أركـانُهُ والبيتُ معتمِدٌ على الأركانِ
قَومي متى تخبرهُمُ لم يُحْسنوا غير اصطناعِ العُرْفِ والإحسانِ
كم مُعدمٍ أغْنَوْا بفضْلِ سماحهِم كرَماً وفَكّوا عن أسيرِ عاني

وأشاد أبو فراس بما حققه قومه من مجد في وقوفهم أمام الروم وصدُهم لخطرهم الداهم فقال :

لمّا بَرَزْنا للدّمُسْتُقِ مَـرَّةً ورأى بوادرَ خَيْلِنا كالأسهُمِ
طَلَبَ النّجاةَ لنفسِهِ فتحكّمَتْ في جيشه الأسيافُ أيَّ تحَكّمِ

وتحدث عن غزو بلاد الروم والإيقاع بجيوشهم والاستيلاء على حصونهم فقال [3] :

وجُبْنَ بلادَ الرّومِ سِتّينَ ليلةً تُغاورُ مَلْكَ الرّوم فيمنْ تُغاوِرُ

---

(١) الديوان (٢ / ٢٦٠) .
(٢) الديوان (٢ / ١٤٣) .
(٣) الديوان (٢ / ١١٧) .

تخرّ لنا تلكَ المَعاقِلُ سُجّداً وتَرْمي لنا بالأهلِ تلكَ المطامرُ
وما زال منّا جارُ خرشنةَ امرُؤٌ يراوِحُها في غــارَةٍ ويُباكِرُ
ولما وردْنا الدّرْبَ والروم فَوقَهُ وقدَّرَ قسطنطينُ أنْ ليسَ صادرُ
ضرَبْنا بها عَرْضَ الفُراتِ كأنما تسيرُ بنا تحت السروج جزائِرُ
إلى أنْ وردْنا أرقَنينَ نَسُوقُها وقد نكَلَتْ أعقابُها والمخاصِرُ
ومال بها ذاتَ اليمينِ « بمرْعشٍ » مجاهيدُ يتلو الصَّابرَ المتصابِرُ

ثم وصف أبو فراس هزيمة ملك الروم الذي فرَّ هارباً وترك ابنه قسطنطين أسيراً ومعه عدد من كبار القواد فقال (٢ :

وابنُ بقُسْطَنْطِينَ وهْوَ مكبّلٌ تحفّ بطاريقٌ به وزَراوِرُ
وولّى على الرَّسمْ الدّمُستقُ هارباً وفي وجهه عذْرٌ من السّيف عاذِرُ
فَدى نَفْسه بابن علْيه كنفسه وللشّدّة الصّمّاء تُفْنى الذّخائرُ
وقد يقْطَعُ العُضْوَ النفيس لغيرِهِ وتُدْفَعُ بالأمرِ الكبيرِ الكبائِرُ

وافتخر أبو فراس على القبائل الثائرة بعد إخضاعها بقوله :

ديارُهُمُ انْتَزَعْناها اقْتساراً وأرضُهُم اغتَصَبْناها اغْتصابا
ولَوْ شئنا حَمَيْناها البَوادي كما تحمي أُسودُ الغابِ غابا

وقال يفتخر ويذكر إيقاعه ببني كعب وكان قد حَسُنَ بلاؤه في تلك الوقعة وكان على مقدمة جيش سيف الدولة (٢) :

أَلَم تَرَنا أعَزَّ النّاسِ جاراً وامنعهُمْ وامْرَعَهُمْ جنابا

---

(١) الديوان (٢ / ١٦) .
(٢) اليتيمة (١ / ٤١) .

لنا الجبَلُ المُطِلّ على نِزارٍ حلَلْنا النّجْد منه والهِضابا
يفضّلُنا الأنامُ ولا نُحاشَى ونوصفُ بالجميلِ ولا نحابى
وقد علِمتْ ربيعَةُ بل نِزارٌ بأنّا الرأس والناسُ الذّنابي
ولمّا أنْ طغَتْ سُفهاء كعْبٍ فتحنا بيْننا للحَرْبِ بابا
منَحْناها الحرائِبَ غيرَ أنّا إذا جارَتْ منحْناها الحِرابا
ولمّا ثار سيفُ الدّينِ ثُرْنا كما هيّجْتَ آساداً غِضابا
أسِنّتُهُ إذا لاقى طِعــاناً صوارِمُهُ إذا لاقى ضِرابا
دعانا والأسِنّةَ مُشْرَعاتٌ فكُنّا عندَ دعوتِهِ الجوابا
صنائِــعُ فاقَ صانعُها ففاقتْ وغَرْسٌ طابَ غارسُه فطابا
وكنّا كالسّهامِ إذا أصابَتْ مراميها فراميها أصابــا

وكما افتخر أبو فراس بقومه وجيشه فكذلك افتخر بمآثره ومناقبه فقال[1]:

سَلي فتَياتِ هذا الحيّ عَنّي يقُلْنَ بما رأيْنَ وما سمِعْنَهْ
ألَسْتُ أمَدّهُمْ لذويَّ ظِلاً ألسْتَ أعَدَّهم للقوم جفْنَهْ
وأثْبَتَهم لدى الحدَثانِ جأشاً وأسرعهُم إلى الفرسانِ طعْنَهْ

ويعدد أبو فراس خصائله الحميدة وسماته الجميلة فيقول[2]:

غيري يغَيّرُهُ الفعالُ الجافي ويحولُ عن شيم الكريم الوافي
لا أرتضي وُدّاً إذا هو لمْ يدُم عندَ الجَفاءِ وقِلّةِ الإنصافِ
تعِسَ الحريص وقلَّ ما يأتي به عِوضاً من الإلحاحِ والإلحافِ

---

(١) الديوان (٣ / ٣٩٧) .
(٢) اليتيمة (١ / ٤٨) .

إنَّ الغنيَّ هو الغنيُّ بنفسِه ... ولو انّهُ عاري المناكبِ حافي
ونَعافُ لي طمعَ الحريص فتوَّتي ... ومروءتي وقناعَتي وعفافي
ما كَثْرةُ الخيل العتاقِ بزائدي ... شرَفاً ، ولا عدد السّوام الضافي
خيلي وإن قلّتْ كثيرٌ نَفْعُها ... بينَ الصّوارِمِ والقَنا الرّعّافِ
ومكارمي عددُ النجومِ ومنزلي ... مأوى الكِرام ومنزِلُ الأضيافِ
لا أقتَني لصروفْ دهري عُدَّة ... حتى كأنَّ خطوبُهُ أخلافي
شيَمٌ عُرِفْتُ بهنّ مذ أنا يافعٌ ... ولقَدْ عرَفْتُ بمثلها أسلافي

وافتخر أبو فراس في شعره فقال [1] :

إذا صُلْتُ يوماً لم أجدْ لي مصاولاً ... وإنْ قلتُ يوماً لم أجدْ مَن يقاوِلُ

وقال كذلك [2] :

فإذا بطَشْتُ بطَشْتُ ليثاً باسِلاً ... وإذا نطَقْتُ نطَقْتُ عن تِبْيانِ

واتسم فخر أبي فراس بطابع الصدق وابتعد عن المبالغات إلاّ في القليل النادر ويكاد الشاعر ينفرد بهذه الميزة التي قلما توفرت لشاعر آخر .

ويقول الدكتور شوقي ضيف أن فخر أبي فراس يمتلىء بالحيوية لأنه يصوّرُ واقعاً لا وهْماً من أوهام الخيال [3] .

ويرى الدكتور سامي الدهان أن مفاخر أبي فراس ليس فيها أكثر من الحقيقة فهي سيرة الحمدانيين آبائه وما فعلوه في سبيل الخلافة . يصف كرمهم

---

(١) الديوان (٢ / ٢٩٢) .
(٢) الديوان (٣ / ٤١٥) .
(٣) الفن ومذهبه في الشعر العربي ص (٣٥٢) .

وشجاعتهم وحروبهم ضد الخوارج وانتصاراتهم على القرامطة والثائرين وغزواتهم ضد الروم وتأديبهم القبائل العربية [1] .

وسلك أبو فراس في فخرياته مسلك الأقدمين من الشعراء فاستهل قصيدته بالمقدمة التقليدية ناهجاً نهج القصيدة العربية منذ جاهليتها الا أن مقدماته اختلفت من حيث التخفف من أسماء المواضع والأشخاص والاتصاف بالرقة والسهولة.

وقد جنحت بعض فخريات أبي فراس إلى الطول فقد بلغت رأئيته خمسة وعشرين ومائتي بيت وكانت من أطول قصائد الفخر في الشعر العربي ومطلعها

لعَلَّ خَيَالَ العـامريّةِ زائِـرُ فيسْعَدَ مهجُورٌ ويسعَدَ هاجِرُ

ويعلل الدكتور مصطفى الشكعة هذه السمة فيرى أنها قد اتخذت نهج الملاحم عند الروم ولا يستبعد أن يكون أبو فراس قد نهج هذا المنهج الملحمي عن قصد لأنه يرتبط بالروم بسبب قريب فهم أخواله وأمه رومية الجنس [2] .

وقد مزج أبو فراس بين الفخر وفنون شعرية أخرى من مثل الحماسة والغزل والحكمة ومما جاء في ديوانه من مزج بين الفخر والغزل قوله [3]:

أحْسَنُ من قَهْوَةٍ مُعَتّقَـةٍ بكَفّ ظَبيٍ مقَرْطَقٍ غَنِـجِ
صَوْتَ قِراعٍ في وسْطِ مَعْمَعَةٍ قد صَبَغَ الأرضَ من دمِ المُهَجِ

كذلك ظهر في فخر أبي فراس تأثره بأسلافه من الشعراء من مثل عمرو ابن كلثوم والمهلهل وعنترة والفرزدق وغيرهم ، فهو يكثر من أذكر أسماء

---

(١) مقدمة الديوان ص (١٥) .
(٢) الديوان (٢ / ١٠٣) وما بعدها .
(٣) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص (١٧٤) .
(٤) الديوان (٢ / ٥٧) .

الرجال ومواقع القتال ويجعل فخره قومياً أكثر منه ذوويا[1] .

ولفخر أبي فراس قيمة تاريخية كبيرة لأنه مسجّل لأعماله ومآثر قومه وأجداده ولعل من الخير قبل ختام القول عن مفاخر أبي فراس أن نشير إلى فخره الذي صدح به إبّان أسره فلقد كثر في شعره في تلك الفترة الجانب الفخري الذي اضطرمت به نفسه وهو بين براثن الأسر ، وظلّ الغربة .

ولقد اقتصرت مجالات الفخر عنده – بعد أسره – على الفخر بنفسه وشعره – وقلما افتخر بقومه بينما كان هذا الجانب بارزاً في شعره قبل الأسر ولعل سبب ذلك يرجع لتأخر سيف الدولة في افتدائه ومن فخره ببطولته في ميدان الوغى قبل أن يصفد بالقيود قوله[2] :

متى تُخْلِفُ الأيّامُ مثلي لكم فتىً طويلِ نِجادِ السّيفِ رَحْبَ المقلّدِ
متى تَلِدُ الأيّامُ مثلي لكم فتىً شَديداً على البَأساءِ غيرُ مُلَهَّدِ

ويمتزج فخر أبي فراس بضروب من الألم والحسرة بعد أن أصبح أسيراً كما في قوله[3] :

تمرّ اللّيالي ليسَ للنّقْعِ مَوْضِعٌ لدَيَّ ولا للمُعْتَقينَ جَنابُ
ولا شُدَّ لي سَرْجٌ على ظهرِ سابحٍ ولا ضربَتْ لي بالعراءَ قِبابُ
ولا برَقَتْ لي في اللّقاءِ قَواطِعٌ ولا لمَعَتْ لي في الحروبِ حِرابُ
ستَذْكُرُ أيّامي نُمَيْرٌ وعامِرٌ وكعبٌ على عِلاّتِها وكِلابُ

ويفتخر أبو فراس على الروم ، ويظهر أن سبب ذلك يرجع لمشادة حدثت

---

(١) الفخر والحماسة ص (٣٣) .
(٢) الديوان (٢ / ٧٩) .
(٣) اليتيمة طبعة سنة ١٩٣٤ (١ / ٥٤ – ٥٥) .

بينه وبين الدّمستقُ ، فقال له الدمستق : إنما أنتم كُتّابٌ ولا تعرفون الحرب . فرد عليه أبوفراس قائلاً : نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام ؟ وأنشد قصيدة حقر فيها الدّمستقُ وافتخر بنفسه وقومه فقال :

أتَزْعَمُ يا ضَخْمَ اللّغاديد أنّنا ... ونحْنُ أُسودُ الحربِ لانعرفُ الحرْبا
فويلَكَ مَن للحربِ إن لم نكنْ لها ... ومَن ذا الذي يمسي ويُضحي لها تِرْبا؟
وويلَك مَن أردى أخاك بمرعشٍ ... وجلّلَ ضرباً وجهَ والدكَ العَضْبا
وويلَك مَن خلّى ابنَ أُختك موثَقاً ... وخلّاك باللّقّان تبتدرُ الشِّعبا
أتوعِدُنا بالحربِ حتى كأنّنـــا ... وإيّاك لم يُعْصَبْ بها قلبُنا عَصْبا
لقدْ جمعَتْنا الحربُ من قبلِ هذهِ ... فكُنّا بها أُسْداً وكنت بها كلبا (١)

ويستطرد أبو فراس مذكراً الامبراطور بقوله : إن العرب ليسوا أهل حرب بل أرباب قلم فيقول :

بأقْلامِنا أجْحَرْتَ أمْ بسُيوفِنا ... وأُسد الشّرى قُدنا إليكَ أم الكُتْبا
تركْناكَ في بَطْنِ الفَلاةِ تَجُوبُها ... كما انتفَقَ اليربوعُ يلتمُ التُّرْبا

ومن أروع ما يمثل فخر أبي فراس الأسير ما جاء في قصيدته الرائية المشهورة والّتي صب فيها حر عاطفته ومزج فيها بين الفخر والغزل كقوله :

أراكَ عصيَّ الدَّمْعِ شيمتك الصّبرُ ... أما للهوى نهْيٌ عليكَ ولا أمْرُ
بلى أنا مُشْتاقٌ وعندي لوْعَـــةٌ ... ولكنّ مثلي لا يُذاعُ لهُ سِرّ
إذا اللّيلُ أضواني بسطْتُ يدَ الهوى ... وأذلَلْتُ دمعاً مِن خلائقِه الكِبْرُ

---

(١) الديوان (٣ / ٣٦ ــ ٣٨) .

تكادُ تضيءُ النارُ بينَ جَوانِحي إذا هيَ أذْكَتْها الصّبابةُ والفكرُ

وبعد هذا الغزل الرقيق يخاطب محبوبته خطاب المحب الواله ثم يخلص إلى الفخر فهو لا يخوض معركة إلاّ والنصر حليفها وإذا نزل إلى ساحة الوغى فإنه لا يقرب الماء إلاّ بعد أن ترتوي السيوف والرماح من دم الأعداء وتشبع الذئاب والنسور من أشلائهم [1] .

وإنّي لحَرّارٌ لكلِّ كَتيبَـــةٍ مُعَوَّدَةٍ ألاّ يُخِلَّ بها النّصرُ
وإنّي لَنَزّالٌ بكـلّ مَخُوفَةٍ كثير إلى نُزّالها النّظَرُ الشّزِرُ
فأظْمَأُ حتّى ترْتَوي البيضُ والقنا وأسْغَبُ حتى يشبعَ الذّئبُ والنّسرُ

أما مجال فخر الشاعر بشعره وشاعريته إبّان أسره فواضح عند الشاعر فهو يعد قصائد من القلائد الغرّ التي يقلدها أهله [2] :

منَعْتُ حِمى قومي وسُدتُ عشيرتي وقلّدتُ أهلي عِزَّ هَذي القَلائِدِ

وهو يذود عن قومه وعرضهم بلسانه وحسامه [3] :

يُطاعِنُ عَن أعْراضِكُمْ بلسانه ويضرُبُ عنكُمْ بالحُسامِ المُهَنّدَ

ولقد اتسم أبو فراس في أسره بطابع الحنين إلى أيام العز الخوالي كما اصطبغ بالحزن والألم ، وإذا كان فخره يبتعد عن الغلو قبل أسره فإنه كان أكثر صدقاً وأقرب إلى الواقع في الأسر لأنه يعبر عما يجيش في صدره من لواعج الألم وما تحس به نفسه من مرارة الأسى .

---

(١) الديوان (٢ / ٢١٢) .
(٢) المصدر نفسه (٢ / ٣٨) .
(٣) المصدر نفسه (٣ / ٤٠٩) .

ولقد امتزج فخر أبي فراس بعد أسره بالفنون الشعرية الأخرى من غزل وعتاب وشكوى واستعطاف وما إلى ذلك . وانتشرت في فخرياته بعض أبيات الحكمة .

وأبو الطيب المتنبي من شعراء بلاط سيف الدولة الذين برعوا في الفخر كثرة وقوة . ولعله في فخره كان يُرضي غروره ويشفي ألم نفسه وحقدها على الزمان والناس وإنّ فخره ليكشف لنا عن نفس لازمها وسواس داخلي بضَعَةٍ موروثة تصورتْ أنها مضطهدة فإذا بها تتعالى وتتعاظم لتقهر الشامتين وتنتصر على الحاسدين الراغبين في إذلالها .

ولقد زعم المتنبي أن الناس جحدوا فضله فلم يرفعوه إلى المكانة التي يستحقها ، من مُلك ، أو ولاية ، فلذلك كان فخره يخفف الأمر على نفسه بترداد محاسنها أو بذم الزمان والناس ، أو بإظهار الصبر والاستهانة بالحوادث ولقد عبر عن ذلك بقوله :

أيَّ عَظيمٍ أتّقي ؟ أيَّ مكانٍ أرْتَقي ؟
وكلّ ما قَد خلَقَ الـ ـلهُ وما لمْ يخلُقِ
مُحْتَقِرٌ في هِمَمي كشَعَرةٍ في مفرِقي[1]

ولقد آمن المتنبي بالقوة إيماناً عميقاً ورأى أنها الطريق الوحيد لتحقيق الرّغاب ونيل الطلاّب .

مَنْ أطاقَ التماسَ شيءٍ غِلابا واغْتصاباً لمْ يلتمِسهُ سُؤالا

وفي سبيل المجد تهون الأخطار وتستلذّ المشقات[2] .

---

(١) ديوان المتنبي (٢ / ٣٤١) .
(٢) الديوان (٣ / ١٧٤) وما بعدها شرح العكبرى .

لا يمتطي المجدَ من لم يركب الخطرا ولا ينالُ العلا من قدَّم الحذرا
ومن أرادَ العُلا عفْواً بلا تعب قضى ولم يقضِ من إدراكها وطرا
لا بُدَّ للشهْدِ مِنْ نحلٍ يمنّعهُ لا يجتني النفْعَ مَنْ لمْ يحمل الضررا

ويفتخر المتنبي بالشجاعة وخوض المعامع وضرب أعناق الرجال وقد بلغت قصائده في هذا المجال مبلغاً رائعاً[1] .

أُطاعِنُ خيلاً من فوارسِها الدَّهْرُ وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبرُ
وأشْجَعُ مني كلّ يومٍ سلامتي وما ثبتَتْ إلاّ وفي نفسها أمْرُ
تمرَّستُ بالآفاتِ حتى تركتُها تقول أماتَ الموتُ أم ذُعِرَ الذُّعْرُ
وأقدَمتُ إقْدامَ الأبيّ كأنَّ لي سوى مهجتي أو كان لي عندها وِتْرُ
ذرِ النفسَ تأخذ وسْقَها قبل بينها فمفترقٌ جارانِ دارهُما العُمْرُ
ولا تحسبنّ المجدَ زِقاً وقَيْنَةً فما المجْدُ إلاّ السيف والفتكةُ البكرُ
وتضريبُ أعناقَ الملوكِ وأن تُرى لكَ الهبَواتُ السُّودُ والعسكر المجْرُ[2]
وتَرْكُكَ في الدّنْيا دوياً كأنما تداولَ سمع المرء أنمُلُهُ العَشْرُ

كما يفتخر بعزة نفسه وقدرته على مجابهة الصعاب وتحمل المشاق ومحافظته على السر وعدم إذعانه للغيد الحسان فيقول :

وإنّي لنجمٌ تهتَدي صحبتي بـه إذا حالَ مِن دون النجومِ سحابُ
غنيٌّ عَنِ الأوطانِ ، لا يَستخفُّني إلى بلدٍ سافرتُ عنهُ إيـابُ
وعَن ذملانَ العيسِ ، إن ساعدتْ به وإلاّ ففي أكوارهنّ عقابُ[3]

---

(١) الديوان (٤ / ١١٩) .
(٢) الهبوات : الغبار العظيم .
(٣) الذملان : ضرب من السير ، والعيس : الابل . الاكوار : جمع كور وهي الرحل . والعقاب : الطائر المعروف .

وأصدى ، فلا أُبْدِ إلى الماء حاجةً وللشمس فوق اليعْملاتِ لُعابُ[1]
وللسّرّ منّي موضع لا ينالُه نديمٌ ، ولا يُفضي إليه شرابُ
وللخَوْدِ منّي ساعةٌ ثمّ بيننا فَلاةٌ إلى غير اللّقاءِ تُجابُ[2]

ولقد افتخر المتنبي بشعره وشمخ بأنفه إلى أعنان السماء ونظر إلى الشعراء باحتقار وازدراء وادعى أنهم لا يستطيعون الإنشاد أمامه فقال :

لا تجْسُرُ الفصحاءُ تنشدُها هنا بيتاً ولكنّي الهَزبرُ الباسِلُ
ما نالَ أهلُ الجاهليّةِ كلهم شعري ولا سامت بسحْري بابلُ

والدهر من رواة قصائد الشاعر وبه يصدح من لا يعرف الغناء :

وما الدهْرُ إلاّ مِن رُواةِ قصائدي إذا قلتُ شعْراً أصبح الدّهرُ مُنشدا
وسارَ بهِ من لا يسيرُ مشمّرا وغنّى به من لا يغنّي مغرّدا

ويخاطب الأمير طالباً منه أن يغدق عليه العطاء لأن الشعراء صدى لصوته وانعكاس لنشيده :

أجِزْني إذا أُنْشِدْتَ شعراً فإنما بشعري أتاك المادحونَ مردّدا
ودعْ كلّ صوت غيرَ صوتي فإنني أنا الصائحُ المحكيُّ والآخرُ الصّدَى

ولقد وصلت قيمة شعره إلى درجة لا يخفى معها إلاّ على الغبي الأعمى :

أنا صخرةُ الوادي إذا ما زوحمتْ وإذا نطقتُ فإنني الجَوْزاءُ
وإذا خَفيتُ على الغبيّ فعاذِرٌ ألاّ تراني مُقْلَةٌ عَمْياءُ

---

(١) اليعملات : النياق النجيبة المعتملة المطبوعة على العمل .
(٢) الخود من النساء : الشابة الناعمة . تجاب : تقطع .

بل إن أدبه يراه الأعمى ويسمعه الأصم :

أنا الذي نظَرَ الأعمى إلى أدبي وأسمعَتْ كلماتي مَن به صممُ

وهو في سماء الشعر ملكٌ وشمسٌ والدنيا فلك[1] :

إنَّ هذا الشِّعر في الشِّعْرِ مَلَكْ سار فهو الشمسُ والدّنيا فلَكْ
عدل الرَّحْمَنُ فيهِ بيننا فقضى باللّفظ لي والحمدِ لكْ
فإذا مَرَّ بأُذنيْ حاسِدٍ صار ممّنْ كانَ حيّاً فهَلَكْ

وقد شرَّق شعره وغرَّب ولم يقف في سبيله عائق :

فشرَّق حتى ليس للشرْقِ مَشرِقٌ وغرَّب حتى ليس للغربِ مغرِبُ
إذا قلتُهُ لم يمتنع من وصولِهِ جِدارٌ معلّى أو خِباءٌ مطنَّبُ

وشعره درٌّ منثور ينظمه :

لكَ الحمدُ في الدّرّ الذي لي لفظهُ فإنّك مُعطيه وإنّيَ ناظِمُهُ

وهو يزهى بشعره ويعجب بنفسه :

إن أكنْ مُعجَباً فعُجبي عجيبٌ لم يَجِدْ فوقَ نفسه من مَزيدِ
أنا تِرْبُ الندى وربُّ القوافي وسِمامُ العِدا وغيظُ الحسودِ

ويمكننا القول بأن الفخر يغلب على قصائد أبي الطيب ، سواء أكانت مدحاً أم رثاء أم غزلاً ، فهو لا يرى حرجاً في أن يقول خلال رثائه لوالدة سيف الدولة :

---

(١) الديوان (٢ / ٣٨٤) .

رماني الدَّهْرُ بالأرزاء حتّى فؤادي في غِشاءٍ من نِبالِ
فصِرْتُ إذا أصابتْني سِهامٌ تكسّرَتِ النّصالُ على النصالِ
وهانَ فما أُبالي بالرزايا لأنّي ما أنتفعتُ بأن أُبالي

فهو يقف متعالياً متشامخاً كأنه يشاهد المأساة مشاهدةً من الخارج وليس يعانيها معاناة من الداخل .

ويظهر هذا الجانب واضحاً في رثائه لجدته فهو يضفي على نفسه العظمة حتى ارتدّت منه إلى جدّته ، وهو لا يعظم غير نفسه ولا يخضع إلاّ للخالق[1] :

ولوْ لمْ تكوني بِنْتَ أكرَمِ والِدٍ لكان أباكِ الضّخمَ كونُك لي أُمّا
لئِنْ لذَّ يومُ الشامتينِ بيَوْمِها فقد وَلَدَت منّي لأنفِهم رغْما
تغَرَّبَ لا مُستَعظماً غيرَ نفْسِه ولا قابلاً إلاّ لخالِقِهِ حُكْما

ولقد استطرد الشاعر في الفخر ومضى في زهوه وتفاخره حتى تحولت القصيدة إلى الفخر المباشر :

يقولونَ لي ما أنْتَ في كلّ بلدةٍ وما تبتغي ؟ ما أبتغي ، جلّ أن يُسمى
وإنّي لمنْ قَوْمٍ كأنّ نُفُوسَهُمْ بها أنَفٌ أن تسكنَ اللحْمَ والعظما
كذا أنا يا دنيا ، فإن شئتِ فاذْهَبي ويا نفسُ زيدي كرائِهها قُدُما
فلا عبرتْ بي ساعةٌ لا تُعِزّني ولا صَحِبَتْني مهجَةٌ تقبلُ الظلمّا

ولقد طرق أغلب الشعراء الحمدانيين باب الفخر ولكن أغلبه جاء أبياتاً منثورة ضمن قصائد قيلت في أغراض أخرى ومثال ذلك قول أبي العباس الناشيء يخاطب سيف الدولة مفتخراً بشعره .

---

(١) الديوان (٤ / ١٠٧ ـ ١٠٩) .

يَتَحَيَّرُ الشعراءُ إنْ سمعوا بهِ في حُسْنِ صنعتهِ وفي تأليفِهِ
فكأنّهُ في قُرْبَةٍ مِنْ فَهْمِهِم ونكولهمْ في العجزِ عن ترصيفهِ
شَجَرٌ بَدا للعينِ حُسْنَ نَباتِهِ ونأى على الأيدي جنى مقطوفِهِ
فإذا قرَنْتَ أبيَّهُ بمُطيعِهِ وقَرَنْتَهُ بغَريبِهِ وطَريفِهِ
ألْفَيْتَ معناه يطابقُ لَفْظَهُ والنّظْمُ منهُ جَلِيّهُ بلَطيفِهِ
فأتاهُ مُتّسِقاً على إحْسانِهِ قد نِيطَ منهُ رَزينُهُ بخَفيفِهِ
هذَّبْتهُ فجعَلْتُهُ لكَ باقِياً ومنعتُ صرْفَ الدَّهر عن تصريفهِ[1]

ويفتخر كشاجم الشاعر الكاتب بأقلامه التي يتخذها بمثابة الرماح ومدادهن بدل دم الجراح[2] :

وإذا تَشَاجَرَتِ الرّما حِ فإنَّ أقلامي رماحي
يمزُجْنَ نَفْحَ مِدَادِهِ نّ بمستعاض دمِ الجِراحِ
وإذا تعَلّقْتَ الأمُو رُ حكمْنَ فيها بانفتاحِ

وقوافيه كأنها عقود الدّرّ المنظوم ، سارت في الآفاق[3] :

وقوافٍ كأنّهنَّ عقود الدّ رّ منظومةً على الأعناقِ
غُرَرٌ تُظْهِرُ المسامعُ تِيهاً حينَ يسْمَعَنها على الأحداقِ

ويفتخر السري الرفاء بشعره الذي أفنى فيه شبابه واعتصر ذهنه :

---

(١) زهر الآداب ص (٦٨٥) .
(٢) ديوان كشاجم المخطوط ص (٢٧) .
(٣) المصدر نفسه ص (١٠٧ ـ ١٠٨) .

أغربت في تحبيرهِ فرواتـــه في نزهة منهُ وفي استغرابِ[1]
وقطعتْ فيهِ شبيبة لم تشتغل عن حسنهِ بصبا ولا بتصابي
وإذا ترقرق في الصحيفة ماؤه عبق النسيم فذاك ماء شبابي

ويخاطب ابنُ نباتة سيف الدولة منوهاً بجودة شعره[2] :

ما أبْتَغي غيري إليكَ وسيلةً إني بفضلكَ والقوافي واثقُ
لا تحْسَبَنّي كالذينَ رأيتَهُم ألعيُّ أفصحُ والتَمَهّلُ شائقُ

ويسير ابن نباتة في فخره على خطى المتنبي فيسلك طريقه وينهج نهجه فيمزج بين المدح والفخر ويشيد بشجاعته في قصيدة مدح بها سيف الدولة حيث يقول :

إذا ما هَزَزْتَ الصارم ابنُ نُباتَة فصمّم بهِ إنَّ الحُسامَ عَتيقُ
فلو شئتُ عَلّمْتُ المكارم شيمتي ولكنّني بالمَكْرُماتِ رَقيقُ
أخافُ عليها أنْ تَجُودُ بنفسها إذا ما أتاها في الزَّمانِ مُطيقُ[3]

وهكذا يتضح لنا أن الفخر كان أحد الفنون التي ازدهرت في رحاب سيف الدولة الحمداني وكان فارساه أبا فراس وأبا الطيب المتنبي ، وأن فخر أبي فراس كان ترجمان نفسه وكان صادقاً قريباً إلى الحقيقة والواقع حيث نقل به أحاسيسه وصوَّر حاله ، أما المتنبي فلقد كان فخره يدور حول أحاسيسه النفسية ويعبر عن ثورة داخلية عميقة ولقد كان شعوره النفسي بهذا قوياً عنيفاً فجاء تصويره دقيقاً صادقاً حافلاً بالصور الجميلة الممتعة والبديع الرائع والخيال الخصيب .

---

(١) نزهة : بعد .
(٢) ديوان ابن نباتة المخطوط ص (٤) .
(٣) المصدر نفسه .

الرثاء

الرثاء من الموضوعات الشعرية البارزة في رحاب سيف الدولة الحمداني وإن كان أغلب ما قيل منه لم يصدر به الشعراء عن قلوب موجعة وإنما كان أداء للواجب وإرضاء للأمير . فلذلك صدر هذا الشعر الراثي عن أفكارهم وعقولهم أكثر مما صدر عن عواطفهم وقلوبهم .

وخير ما يمثل ذلك أبو الطيب المتنبي الذي ساق الحكم في رثائه تعزية للأمير ونظم ست مراث قالها لسيف الدولة ، إذ رثى فيها أمه وابنه وأختيه وابن عمه وخادمه يماك .

ويرى الدكتور طه حسين أن هذه القصائد إن كانت لا تخلو من جيد الشعر وكانت رائعة فليست هي خير ما قال المتنبي في الرثاء ومصدر ذلك فيما يظهر أن المتنبي قال أكثرها أداء للواجب ونهوضاً بالحق ، لا استجابة للعاطفة ، ولا إعراباً عن الضمير . ولا تكاد نستثني منها إلاّ القصيدة التي رثى فيها خولة أخت الأمير [1] . وإننا لنقرأ رثاءه فلا نحس تلك الحرارة التي يولدها الموت في النفوس أو يوقدها الحزن في القلوب ولا تلك اللوعة المتأججة بين الجوانح ، ولا نشعر مطلقاً بأن الألم قد عرف إلى نفسه سبيلاً [2] .

---

(١) مع المتنبي ـ الدكتور طه حسين ص (٢٠٤) .
(٢) ابو تمام والبحتري والمتنبي بين حقائق الحكمة وخيالات الشعر ـ الدكتور عبد السلام سرحان ـ رسالة مخطوطة ص (٤٩١) .

ولقد رثى المتنبي أم سيف الدولة في السنة التي اتصل بها فيه . فرثاها الشاعر بقصيدته اللامية واستهلها بمجموعة من الحكم عن الموت وكيف أنه يخطف الأحياء بسهولة ويسر دون قتال أو حرب ويتحدث عن خيانة وغدر الدنيا بالأحياء والخلاّن [1] .

نُعِدُّ المَشْرِفِيَّةَ والعَوالي ... وتقتلنا المَنُونُ بلا قتالِ [2]
ونَرْتَبِطُ السَّوابقَ مُقْرَباتٍ ... وما يُنجينَ من خَبَبِ اللَّيالي
ومن لم يَعْشَقِ الدّنْيا قديماً ؟ ... ولكن لا سبيل إلى الوِصالِ
نَصيبُكَ في حياتك من حبيبٍ ... نصيبُكَ في منامك من خَيالِ

ويستطرد المتنبي فيُعظم ميتة الفقيدة لجلالها :

وهذا أولَ النّاعينَ طُرّاً ... لأولِ ميتةٍ في ذا الجَلالِ
كأنّ الموتَ لم يفجَعْ بنفسٍ ... ولم يخطُرْ لمَخْلوقٍ ببالِ
صلاةُ اللهِ خالِقُنا حنوطٌ ... على الوجْهِ المكفَّنِ بالجمالِ
على المدْفونِ قبلَ التُّرْبِ صَوْناً ... وقبلَ اللّحْدِ في كرمِ الخِلالِ
فإنَّ لهُ ببطنِ الأرضِ شخصاً ... جديداً ذكرناهُ وهْوَ بالي
وما أحَدٌ يخلَّدُ في البَرايا ... بلِ الدّنيا تؤولُ إلى زوالِ

ويرى طه حسين أن في قوله « ذكرناه » سماجة لفظية فهذا الكلام إن أقره النحو لا يقبله الشعر ولا يليق به أن يذكر البلى والانحلال لجسم الأميرة الأم وهو يعزي ابنها [3] .

---

(١) ديوان المتنبي ــ شرح العكبرى (٣ / ٨) وما بعدها .
(٢) المشرفية : السيوف ، العوالي : الرماح ، المنون : المنية وقيل الدهر ومن ثم يؤنث ويذكر ويكون واحدا وجمعا .
(٣) مع المتنبي ص (٢٠٨) .

ويظهر الشاعر ألمه لفقدان الأميرة ويتساءل عن المجد الذي لفّه الرَّدى وطواه العدم :

أُسائِلُ عَنْكِ كلَّ مَجْدٍ وما عهْدي بمجدٍ منك خالي
يمُرّ بقبرك العاني فيَبْكي ويشغُلُهُ البُكاء عن السّؤالِ

ويفضل المتنبي الأميرة على كثير من الرجال ويحتج لتفضيل النساء على الرجال بحجة لطيفة فالشمس مؤنثة وهي تفضل الهلال بضوئها الذي يغمر الآفاق :

ولو كانَ النساءُ كمن فقدْنا لفضلت النساءُ على الرجالِ
وما التأنيثُ لاسم الشّمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلالِ

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ماتت أخت سيف الدولة الصغرى فعزّاه المتنبي بقصيدة حافلة بالحكم المبثوثة والألوان الفلسفية التي فتحت لأبي العلاء باباً من أبواب الفلسفة والتفكير [1] . واصطبغ رثاؤه بألوان لم تكن معهودة للعرب فقال :

ولذيذ الحياة أنفسُ في النّفْسِ وأشْهى من أن يملّ وأحْلى
وإذا الشيخُ قال أُفٍ فما مَلَّ حياةَ وإنما الضّعفُ مَلاّ
آلة العيشِ صحّةٌ وشبابٌ فإذا ولّيا عن المرْءِ ولّى
أبداً تستردّ ما تهَبُ الدّنْ يا فيا ليت جُودها كان بُخْلا
فكَفَتْ كونَ فرحَةٍ ثورثُ الغَمّ وخِلّ يغادرُ الوجْدَ خَلاّ [2]

---

(١) مع المتنبي ص (٢١١) .
(٢) الوجد : الحزن ، الخل ، الخليل .

وهيَ معشوقةٌ على الغدْرِ لا تحْـ ـفَظُ عهداً ولا تُتَمّمُ وَصْلا
شِيَمُ الغانياتِ فيها فما أدْ ـري لذا أنّثَ الناس اسمها أم لا

وعندما ماتت أخت سيف الدولة الكبرى خولة التي كانت تعرف بست الناس سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة وكان المتنبي حينئذ في الكوفة رثاها الشاعر بقصيدة رائعة تعد أجمل رثاء قاله لسيف الدولة وأنفذها إليه .

ولقد اختلف النقاد اختلافاً كبيراً في الرأي حول هذه القصيدة .

وسبق لنا أن بسطنا القول حول هذا الموضوع وعرضنا لآراء مَن زعموا أن المتنبي كان محباً لأخت سيف الدولة وملنا إلى القول بأن هذا رأي باطل وأن هذه القصيدة لا تدل على صلة قريبة أو بعيدة بين المتنبي والفقيدة . وكل ما يفهم منها أن الأميرة خولة كانت من المعجبين بشعر الشاعر وأنها كانت تمنحه بعض المنح والعطايا . والشاعر يتحدث عن أنها برته وأحسنت إليه عن بعد كما كانت تحسن إلى غيره من الأدباء فعبر عن شكرانه حيث قال (١) :

يا أختَ خير أخٍ يا بنْتَ خيرِ أبٍ كنايةً بهما عن أشرف النّسَبِ
أجِلّ قدرك أنْ تُمْسي مُؤبّنَةً ومَنْ يصِفْكِ فقد سمّاكِ للعَرَبِ
لا يملِكُ الطّرَبُ المحزونِ منطقَهُ ودمْعَهُ وهما في قبْضَةِ الطّرَبِ
غَدَرْتَ يا موتُ كم أفنيتَ من عددٍ بمن أصبْتَ وكم أسكَتَّ من لجِبِ
وكم صَحبْتَ أخاها في منـازِلِهِ وكم سألتَ فلمْ يبخلْ ولم تخِبِ

وقد نزل عليه خبر موتها ، وهو بالكوفة كالصاعقة :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبَرٌ فزعْتُ فيهِ بآمالي إلى الكَذِبِ
حتّى إذا لم يدعْ لي صِدقُه أمَلاً شرِقتُ بالدّمع ، حتى كاد يشرق بي

---

(١) ديوان المتنبي ـ شرح البرقوقي ص (٢١٥ ـ ٢٢٥) .

ثم يستطرد الشاعر فيصور اشتراكه في الحزن واللوعة بألفاظ رقيقة عذبة كما يشير إلى أخلاق الفقيدة وبرّها للناس بالهبات والعطايا فيقول :

أرى العراقَ طويلَ الليلِ مذْ نُعيتْ ... فكيفَ ليلُ فتى الفتيانِ في حلَبِ ؟
يظُنُّ أنَّ فؤادي غيرُ مُلْتَهِبٍ ... وأنّ دمْعَ جفوني غيرُ منسكِبِ
بلى وحُرْمَةِ من كانت مراعيةً ... لحُرمَةِ المَجْدِ والقُصّادِ والأدبِ
ومن مَضَتْ غير موروثٍ خلائقها ... وإن مضتْ يدُها موروثة النّشبِ[1]
وهمّها في العُلا والمُلْكِ ناشئَة ... وهَمّ أترابها في اللّهوِ واللّعبِ[2]

ويشيد المتنبي بمكانتها ويذكر قبيلتها ويفضلها عليها ويشبهها بالشمس الغاربة فيقول :

فإنْ تكنْ خُلِقت أُنثى لقد خُلقتْ ... كريمةً غير أُنثى العقلِ والحسَبِ
وإن تكن تغلُبُ الغَلْباء عنصرُها ... فإنّ في الحَمْرِ معنىً ليس في العنبِ
فليتَ طالعَةَ الشمسينِ غائبَةٌ ... وليتَ غائبَةُ الشّمسينِ لم تغبِ
وليت عينَ التي آبَ النّهارُ بها ... فِداءَ عينِ التي زالتْ ولمْ تَؤبِ

ويعزي المتنبي سيف الدولة في أخته الكبرى ويذكره بفقيدة الأعوام الماضية أخته الصغرى فيقول :

قد كان قاسمَك الشّخصينِ دهرهما ... وعاش درُّهما المفديُّ بالذّهبِ[3]
وعادَ في طلَبِ المَتروك تاركُهُ ... إنّا لنغْفُلُ والأيّامُ في الطّلَبِ

---

(١) الخلائق : جمع خليقة بمعنى الخلق ، والنشب : المال .
(٢) أترابها : لداتها ونظيراتها في العمر .
(٣) يريد بالشخصين ـ اختيه ـ ماتت احدهما وهي الصغرى وبقيت الكبرى ، فكانت كدر فدي ـ بذهب ـ جعل الكبرى كالدر، والصغرى كالذهب .

ما كان أقصرَ وقتاً كان بينهما كأنه الوقت بين الوِرْدِ والقَرَبِ [1]

ويخلص إلى الحكمة والفلسفة فيقول :

تخالَفَ الناسُ حتى لا اتفاقَ لهم إلاّ على شجَبٍ والخُلقُ في الشّجبِ
فقيلَ تخلُصُ نفسُ المرء سالمَةً وقيل تَشرُكُ جسمَ المرءِ في العَطبِ
ومن تفكّرَ في الدّنيا ومُهْجَتَهُ أقامه الفِكرُ بينَ العَجْزِ والتّعبِ

ومات لسيف الدولة طفل،وهو أبو الهيجاء عبد الله سيف الدولة فرثاه المتنبي في قصيدة شحّ فيها الشعور ومطلعها :

بنا منكَ فوقَ الرَّملِ ما بك في الرَّملِ وهذا الذي يُضْني كذاكَ الذي يُبلي
كانّكَ أبصرتَ الذي بي وخِفْتَه إذا عشتَ فاخترتَ الحِمام على الثكلِ

ولم يوفق المتنبي في مطلع قصيدته إذ استهلها بذكر البلى والانحلال الذي سيصيب الابن في قبره وهذا أمر صعب على نفس والده الذي يكن له المودة والحب وإذا كان المتنبي لم يوفّق في مطلع قصيدته فإنه وفق إلى استنباط معان جديدة وعميقة كقوله :

فإنْ تكُ في قبرٍ فإنّك في الحَشَا وإنْ تكُ طفلاً فالأسى ليس بالطفلِ
ومثلُكَ لا يُبكى على قَدْرِ سِنّه ولكن على قدْرِ المَخيلة والفَضْلِ

ويمزج الشاعر الرثاء بالمدح إذ يخاطب الأمير قائلاً :

---

(١) الورد : اتيان الابل الماء ، والقرب : سير الليل لورد الغد وذلك ان القوم يرعون الابل وهم في ذلك يسيرون نحو الماء ، فاذا بقيت بينهم وبينه عشية عجلوا نحوه فتلك الليلة ليلة القرب ويقول ان أجليهما كانا متقاربين حتى أن المدة التي بينهما كانت لقصرها كأنها المدة بين الورد والقرب وهي ليلة .

عَزاءُكَ سيف الدولة المقتدى به فإنك نصْلٌ والشدائد للنّصْلِ
ولم أرَ أعصى منك للحزن عبرةً وأثبتَ عقلاً والقلوب بلا عقلِ

ويخلص المتنبي إلى الحكمة والفلسفة كشأنه في بقية قصائد الرثاء فيتحدث عن الدهر وقسوته وعدم الأمل به فيقول :

إذا ما تأمّلتَ الزّمانَ وصرْفَهُ تيقّنْتَ أنّ الموتَ ضرْبٌ من القتْلِ
وما الدّهْرُ إلاّ أن تُؤمّلَ عنْـدَهُ حياةٌ وأن يشتاق فيهِ إلى النسْلِ

ولقد رثى المتنبي جدته التي هي بمثابة الأم له إذ ماتت أمه وهو حدَثٌ فتعهدته جدته بعطفها وأظلته بحنانها وحدبت عليه حدباً أنساه أحزانه وكانت هذه الجدة تشتاق للمتنبي وتتسقط أخباره بعد أن طوّفَ بالبلاد وتقاذفته الفلوات وأرسل إليها كتاباً يستدعيها فأمعنت فيه تقبيلاً وفرحت به وغلب عليها السرور فحّمتْ لوقتها فماتتْ فأرسل في رثائها قصيدة غلب عليها الفخر والتهديد والوعد والوعيد وليس الرثاء محلها ولا الكلام فيه موطنها . ولقد كان الموقف يقتضيه أن يتناول هذا الموضوع بشيء من العناية وبسط القول والتهويل بعظم المصيبة وإعلان الفجيعة والحسرة الممزوجة باللهفة والأسى ولكنّ أبا الطيب عزفت نفسه عن تلك الأمور .

وفي مطلع قصيدته يحمل المتنبي على الأحداث حملة شديدة وقد عنى بها الدهر – فهو لا يملك الضرّ أو النّفع – ويحنّ إلى كأس الموت الذي شربته جدّته وإلى التراب الذي ضمها ويضمها بالكرم والفضل فيقول :

ألا لا أرى الأحداث حمداً ولا ذماً فما بطشها جهلاً ولا كفُّها حلما [1]

---

(١) الاحداث : نوب الدهر ومصائبه .

إلى مثل ما كانَ الفتى مرجعُ الفتى ... يعود كما أبدى ويُكري كما أرمى[1]
لكَ اللهُ من مفجوعةٍ بحبيبها ... قتيلةَ شوقٍ غيرِ مُلحقها وصْما
أحنّ إلى الكأس التي شربَتْ بها ... وأهوى لمثواها الترابَ وما ضمّا
بكيْتُ عليها خيفةً في حياتها ... وذاقَ كلانا ثُكل صاحبه قِدْما
ولو قَتَلَ الهَجرُ المحبين كلّهم ... مضى بلدٌ باقٍ أجَدَّتْ له صَرْما
عرَفْتُ اللّيالي قبلُ ما صنعْتَ بنا ... فلمّا دهَتْني لم تزدْني بها عِلْما

وينتقل المتنبي إلى تصوير قصة موت جدّته تصويراً رائعاً فيقول :

أتاها كتابي بعد يأسٍ وترْحةٍ ... فماتتْ سروراً بي فمُتُّ بها غَمّا
حرامٌ على قَلْبي السرورُ فإنّني ... أعُدّ الذي ماتت به بعدها سُمّا
تعجّبُ من خطّي ولفظي كأنها ... ترى بحروفِ السّطرِ أغربةً عُصْما
وتلْثُمُه حتى أصار مِدَادُهُ ... محاجِرَ عَيْنَيها وأنْيابِها سُحْما
رَقا دمْعُها الجاري وجفّتْ جفونها ... وفارق حُبّي قلبها بعدَما أدْمى
ولم يُسْلِها إلاّ المَنايا وإنّما ... أشَدُّ من السّقمِ الذي أذهبَ السقما

ويصور المتنبي تجواله في البلاد ويطلب المغفرة لجدته ويبدي الأسى لعدم تقبيله رأسها وصدرها ولكنه يمزج بين الرثاء والفخر فيقول :

فأصبحت أستسقي الغمامَ لقبرها ... وقد كنت أستسقي الوغى والقنا الصّما[2]
وكنتُ قُبَيلَ الموت أستعظمُ النّوى ... فقد صارت الصّغرى التي كانت العظمى
وما انسدّتْ الدّنْيا على لضيقِها ... ولكنّ طَرْفاً لا أراكِ بهِ أعمى

---

(١) أكرى الشيء : نقص ، أرمى : أربى وزاد .
(٢) الغمام : السحاب ، الفنا : الرماح ، الصم : الصلاب .

فوأسفاهُ ألاّ أكُبَّ مُقَبّلاً لرأسكِ والصَّدْرِ اللذي مُلئا حزما
وألاّ أُلاقي روحَك الطّيّبِ الذي كأنَّ ذكيّ المسْك كان له جسْما

وينتقل المتنبي إلى الفخر بنفسه فيعدد مناقبه ويشيد بشجاعته ويظهر محاسنه ويستطرد في الفخر إلى نهاية القصيدة وينسى أن موضوع القصيدة رثاء .

ونحن لا نقر مثل هذا النهج الذي خرج به على قواعد الرثاء ،فقصيدته في رأينا بارعة المطلع جيدة التصوير إلاّ أنها مشوهة لهذا المزج الذي أولع به المتنبي وحرص دائماً عليه حيث يقول :

ولو لمْ تكوني بنتَ أكرمِ والدٍ لكان أباكَ الضخمَ كونك لي أمّا
لئنْ لَذَّ يومُ الشامتينَ بيومهـا فقد ولَدْتَ منّي لأنفسِهم رغْما [1]
تغرَّبَ لا مستعظِماً غير نَفْسه ولا قابِلاً إلاّ لخالقِه حُكْما
ولا سالكاً إلاّ فؤادَ عجاجَـةٍ ولا واجداً إلاّ لمكرمةٍ طَعْما
يقولونَ لي ما أنتَ في كلّ بلدةٍ وما تبْتغي ما أبْتغي جَلَّ أن يُسمى

ومن الشعراء الذين برزوا في الرثاء أبو فراس الحمداني الذي اقتصر في رثائه على أقاربه فقط . فقد رثى أخته وابن عمه أبا وائل تَغَلَّب بن داود وأبا المُرَجّى بن ناصر الدولة وأبا العشائر ولهذا يمكن القول بأن رثاءه كان صادراً عن عاطفة صادقة . فصلة المرثي القوية بالشاعر تدفعه إلى إجادة التعبير عن الحزن وتصوير اللوعة والأسى كقول أبي فراس في رثاء ابنه الذي رزىء به فكان وقع المصيبة شديداً عليه وتمنّى لو استطاع أن يفديه بنفسه وفي ذلك يقول :

أعَزِزْ عليَّ بأن يبيتَ موَسّداً وأبيتُ أنْدُبُهُ مع الإخوانِ

---

(١) ديوان أبي فراس (٣ / ٤١٦) .

ولقد وددْتُ بأن أكون مكانه تحت التراب وأنْ يكونَ مكاني

ورثى أبو فراس أخته وكان خير من رثى أختاً له إذ ندر أن نجد رثاء حاراً لأخ في أخته وتجلى الوفاء في مرثيته حين تمنى أن يموت قبل أن يأتيه أجَلُه لأن أخته قضت نحبها وذلك في قوله [1] :

عَقيلتي استُلِبَتْ من يدي ولمّا أبِعْها ولمّا أهَبْ
وكنتُ أقيكِ إلى أن رمتْكِ يدُ الدهر من حيث لا أحتسبْ
فلا سلِمَتْ مُقْلةٌ لم تسحّ ولا بقيتْ لمّةٌ لم تشِبْ
يعزّون عنك وأينَ العزاء ؟ ولكنها سُنّةٌ تُستحبْ
ولو رُدَّ بالرّزْءِ ما تستحق لما كان لي في حياة أرَبْ

ورثى أبو فراس أبا العشائر حين مات أسيراً ببلاد للروم بمقطوعة قصيرة ظهر فيها الإخلاص والود [2] :

أأبا العشائرِ لا محلّكَ دارسٌ بينَ الضلوعِ ولا مكانك نازحُ
إنّي لأعلَمُ بعدَ موتكَ أنّه ما مرَّ للأمراء يومٌ صالحُ

ورثى ابن عمه أبا وائل تغلب بن داود في قصيدة حزينة فقال [3] :

كأنّما دَمْعيَ من بَعْـــدِهِ صَوْبُ سحابٍ واكفٍ وابِلِ

ويتحدث عن مناقب ابن عمه وخلاله وينحو في ذلك مَنْحى أسلافه من الشعراء الجاهليين وغيرهم فيقول :

---

(١) المصدر نفسه (٢ / ٤٢) .
(٢) ديوان ابي فراس (٢ / ٦٤) .
(١) المصدر نفسه (٢ / ٢٦٧ ـ ٢٧٧) .

مـــا أنـــا أبكيه ، ولكنّما تبكيهِ أطرافُ القَنا الذوابلِ
دانٍ إلى سُبُلِ النّدى والعُلا ناءٍ عنِ الفحْشاء والباطِلِ
أرى المعالي إن قضى نحبَهُ تبكي بُكاءَ الوالهِ الثّاكِلِ
الأسَدَ الباسِلَ والعارضَ الـ ـهاطل عنْدَ الزَّمن الماحِلِ

وكتب إلى سيف الدولة يعزيه عن أخته وذلك في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وأبو فراس أسيرٌ بالقسطنطينية وقد أتاه نَعْيها ورأى في موتها حادثاً جلَلاً أصاب سيف الدولة فمزج بين المدح والرثاء في قوله[1] :

أوصيكَ بالحُزْنِ لا أُوصيكَ بالجلدِ جَلَّ المُصابُ عنِ التّعنيفِ والفنَدِ[2]
إنّي أُجِلُّكَ أن تُكفى بتعْزِيَةٍ عن خيرِ مفتقَدٍ ،يا خيرُ مُفْتقِدِ

ويبدو الحزن والأسى واضحاً في مرثيته هذه حيث يقول :

هي الرَّزِيّةُ إن ضنّتْ بما ملَكتْ منها الجُفون فما تسخو على أحدِ
بي مثلُ ما بكَ من حزْنٍ ومن جزَعٍ وقد لجأتُ إلى صبرٍ فلم أجِدِ
لم ينقُضَنّي بعدي عنك من حزَنٍ هي المُواساةُ في قُرْبٍ وفي بُعُدِ
لأشركَنّكَ في اللاواءِ إن طرقَتْ كما شركتُكَ في النّعماءِ والرَّغَدِ

وتتردد مظاهر الألم العميق وتنطلق حسرات الشاعر من أعماق نفسه فيقول :

أبكي بدَمعٍ لهُ من حسرتي مَدَدٌ وأستريح إلى صبرٍ بلا مدَدِ
ولا أسوّغُ نفسي فرحَةً أبداً وقد عرفْتُ الذي تلقاه من كَمَدِ
وأمْنَعُ النومَ عيني أنْ يُلِمَّ بها عِلْماً بأنكَ موقوفٌ على السّهَدِ

---

(١) ديوان ابي فراس ص (٧٥) .
(٢) الفند : الخطأ في الرأي .

يا مُفَرَّداً بات يبكي لا معينَ لهُ أعانك اللهُ بالتّسليم والجَلَدِ

وورد على أبي فراس وهو في الأسر نبأ وفاة أبي المكارم بن سيف الدولة في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة فاشتد جزعه على ابن أخته وأرسل قصيدة يعزي فيها سيف الدولة واستهلها بالدعاء لسيف الدولة بطول العمر ونعته بالصبر والجلد فقال [1] :

يا عمّر اللهُ سيف الدّين مغتبطاً فكلّ حادثَةٍ يُرْمى بها جَلَلُ
مَنْ كان عن كلّ مفقودٍ لنا بدَلاً فليس منه على حالاتِهِ بَدَلُ
يبكي الرجالُ وسيف الدين مُبتسمٌ حتى عن ابنكَ تُعطى الصبرَ يا جبلُ
لم يجهَل القومُ منه فضلَ ما عَرفوا لكنْ عرفت من التّسليم ما جَهِلوا

ويظهر أبو فراس على الأمير الفقيد شتى ضروب اللوعة والحزن والتفجع ولا غرو في ذلك فالفقيد يمت بصلة قريبة إليه كما أن أسر الشاعر وبعده عن الأهل والوطن أضفى على نفسه كآبة ووحشة وفي ذلك يقول :

هلْ تبْلُغُ القَمَرَ المدفونَ رائِعَةٌ من المَقال عليها للأسى حُلَلُ
ما بعدَ فَقدكَ في أهل ولا ولدٍ ولا حياةٍ ولا دُنْيا لنا أمَلُ
يا مَنْ أتَتْهُ المَنايا غيرَ حافِلَةٍ أينَ العبيدُ وأينَ الخيلُ والحَوَلُ
أين الليوثُ التي حولَيْكَ رابضَةٌ أين الصنائعُ ؟ أين الأهل؟ ما فعلوا ؟
أين السيوفُ التي يحميكَ أقْطعُها أينَ السوابقُ أين البيضُ والأسلُ ؟

وجاء إلى أبي فراس وهو في الأسر نبأ موت أمه ، فرثاها بقصيدة فاضت لوعة وأسى ولم يصنع صنيع المتنبي في رثائه لجدته حيث خلط بين الرثاء

---

(١) ديوان ابي فراس ص (٢٧٥ ــ ٢٧٦) .

والفخر فالقصيدة بكليتها تعبر عن الألم العميم والحزن العميق ، ويبدو تأثره واضحاً في ترديد الدعاء بالسّقيا لحدث والدته حيث يقول :

أيا أُمَّ الأسير سقاك غيثٌ بِكْرةٍ منك ما لقيَ الأسيرُ
أيا أُمَّ الأسير سقاك غيثٌ تحيّر لا يُقيم ولا يَسيرُ
أيا أُمَّ الأسير سقاك غيثٌ إلى مَن بالفدا يأتي البشيرُ
أيا أُمَّ الأسير لمنْ تُرَبّى إذا متّ الذوائبُ والشعورُ

ويحرّم على نفسه أن يكون هادىء البال مرتاح النفس بعد أن لبّت أمه نداء باريها حيث يقول :

حرامٌ أن يبيتَ قَريـرَ عَيْنٍ ولؤمٌ أن يُلِمّ به السّرورُ
وقد ذقْتِ المَنايـا والرَّزايـا ولا وَلَدٌ لَدَيْك ولا عَشيرُ
وغابَ حَبيبُ قلبِك عَنْ مكانٍ ملائكَتُهُ السّماء به حُضُورُ

ويمزج بين البكاء على أمه وبين الحديث عن مناقبها كالسلاح والتقوى والأخلاق الكريمة فيقول :

ليبْكك كلُّ يومٍ صمْتِ فيه مصابرةً وقد حَميَ الهَجيرُ
ليبكِك كلُّ يومٍ قمْت فيه إلى أن يبْتَدي الفجرُ المُنيرُ
ليبكِك كلّ مضطهدٍ مخُوف أجرتيه وقد قلّ المُجيرُ(١)
ليبكِك كلّ مسكينٍ فَقيرٍ أغثْتيه وما في العظْم زيرُ

---

(١) أجرتيه وأغثتيه : غير سليمتين عربية ويظهر انهما من ضرورات الشعر.

ويرسل الشاعر ذوب نفسه ونفثات حشاه الجريح وصبابات قلبه الراعف بالجراح حتى يخيل إلينا أنّا نسمع نشيج بكائه حيث يقول :

أيا أُمّاهُ كم همٍّ طويلٍ مضى بك لم يكنْ منهُ نَصيرُ
أيا أُمّاهُ كم سرٍّ مصُونٍ بقلبك ماتَ ليس لهُ ظُهورُ
أيا أُمّاه كم بشرى بقُربي أتَتْك ودونها الأجَلُ القصيرُ
إلى مَن أشتكي ولمَنْ أُناجي ؟ إذا ضاقت بما فيها الصّدُورُ ؟

ومن الشعراء الذين أكثروا القول في الرثاء كشاجم فلقد رثى أمه وأباه وغلامه ولم يقتصر على أقرب الناس إليه بل رثى آخرين ممن قويت صلات المودة بينه وبينهم كرثائه لعبد الملك بن محمد .

وقد رثى الشاعر والدته بمقطوعة زخرت على يسارة معانيها بالعاطفة الصادقة والألم ومنها قوله [1] :

أبَعْدَ مُصاب الأمّ آلفُ مَضْجَعاً وآوي إلى خفضٍ من العيش أو ظِلّ
ستُرْضِعُ عيني قبرها من دُمُوعها بما كُلّفتْه من رضاعي ومن حَمْلي
فأقسمُ لو أبصرَتْني عندَ موتِها وعيني تسحّ الدمعَ سَجْلاً على سجل
رثيتَ لنصلٍ يأخذُ الموتُ جَفْنَهُ وأعجبْتَ من فرْعٍ ينوحُ على أصْل

ولقد رثى الشاعر أباه بقصيدة تنضح بالأسى والألم ومنها [2] .

لا تَبْعُدَنَّ أبي الشّفيـ ـقَ وإنْ غدَوتَ رهينَ رمْس
وسَقَى ضريحَكَ وابِلٌ يُضْحي بصَوْبَتِه ويُمْسي
ولقدْ غَدَتْ دُنْيايَ بَعْـ ـدَكَ وَحْشَةً من بعْد أُنْس

---

(١) ديوان كشاجم المخطوط ص (١٢٩) .
(٢) ديوان كشاجم المخطوط ص (٨٨) .

وعَشيتُ في ظُلَمِ الخُطُو ب وكنتَ مِصباحي وشمسي
وتَرَكْتَني غَرَضاً لنَبْ ل الحادثات وكنتَ تُرْسي
فتَمَكَّنَتْ أنْيابُ رَيْ ب الدَّهْر من عضّي ونهشي

ولقد عزى كشاجم صديقه الصَّنوبَريّ في ابنته بمقطوعة معانيها مألوفة مطروقة ولغتها وأفكارها قريبة إلى الحديث العادي وخالية من العاطفة الصادقة والإحساس العميق ومنها [1] .

أتَأسى يا أبا بَكْرٍ لمَوْت الحُرَّة البِكْر
وقدْ زَوَّجْتَها القَبْ ر وما كالقبرِ من صِهْر
وعوّضت بها الأجْ رَ وما كالأجر من مَهْر
زفافٌ أُهْديتْ فيه من الخِدر إلى القبْر
فتاةٌ أسْبَلَ اللهُ عليها أسْبَغَ السّتْر

ولقد تجاوز كشاجم الرثاء في الحدود المتعارف عليها هادفاً إلى الإطراف والتجديد فطرق موضوعاً هزلياً مزجه بالجدّ وغلفه بظلال قاتمة فتفجّع على منديل ورثى طاووساً ووصف مصابه بسكين وعزّى في عود انكسر .

ومثال ذلك رثاؤه لقُمْريّ فقال [2] :

غدَرَ الزَّمانُ وجارَ في أحكامِه والدَّهرُ عين الخائن الغدّار
ورُزئتُ أعْلاقاً عليّ كريمَةً من قبل أن تقضى بها أوطاري
لونُ الغمامَة والغَمامَةُ لونه ومناسبُ الأقلام بالمِنْقار
ومطَوّقٌ من صبْغ خلْقة ربّه طوقَيْن خِلْتُهما من النّوّار

---

(١) المصدر نفسه ص (٧٨ ــ ٧٩) .
(٢) المصدر نفسه ص (٧٨ ــ ٧٩) .

وأبدى حسرته وألمه على سيد الأطيار فقال :

لهْفاً على القُمْريّ لهْفاً دائماً يكوي الحَشا يكوي كلدغ النّار
ولقد هجَرْتُ الصبرَ بعد فراقه ولقد مزَجْتُ دماً بدمع جاري
ما كنتَ في الأطْيار إلاّ واحداً هيهاتَ أودى سيّدُ الأطيار

ومن شعراء البلاط الحمداني الذين طرقوا باب الرثاء أبو بكر الصنوبري فلقد رثى أمه بقصيدة رائعة مجبولة بالمحبة والعاطفة الصادقة ومنها قوله [1] :

قدْ صَوَّحَتْ روضَتي المُونقهْ وانتزعَتْ دوحَتي المورقَهْ
بابٌ إلى الجَنّة ودّعْتُـــهُ منذُ رأيت الموتَ قد أغْلَقَهْ
لا يبْعَدَنْ مَثواكَ يا أمّ ما أبعدَ مَثْواك وما أسحَقَهْ
قَدْ صدّقَ الموتُ الذي لم أزلْ أحْذَرُهُ منكَ وقد حقّقَهْ

ويعبر الشاعر عن حزنه وأساه العميق فأمه التي كانت تتحاشى أن ترى الظلمة غدت في رمس ظلمة مطبقة ويصور ذلك قوله :

يا للمَنايا كيفَ أنجو بهـا من كُربٍ وهي بها محْدقَهْ
من تتحامى أن تَرى ظُلْمَةً أسكنْتُها في ظُلَمٍ مُطبقهْ
ومن تضيقُ الأرضُ في عينها أهديْتُها للحُفْرَة الضيّقَهْ
مهجةً حُزَّتْ فضَمّنْتُها منَ الثرى غيرَ الضَّمين الثّقهْ
عَلامَ طابَتْ بكَ نفسي وقدْ عهَدْتُها حانِيَةً مُشْفِقَهْ

ولقد فجع الصنوبري بابنته ليلى فرثاها بقصائد بالغة الحزن ظاهرة اللوعة

---

(١) ديوان الصنوبري ص (٤٤٢ ــ ٤٤٣) .

والأسى وملأ ديوانه بأنّاتٍ باكيةٍ منبثقةٍ من قلبٍ وفؤادٍ جريحٍ فمن ذلك قوله [1] :

أقْصِرْ فما تملُكُ إقصاري صَبَّرْتَ مَنْ ليس بصبّارِ
مالي عن الأوزار مندوحَةٌ إذ كانت الأحزانُ أوزاري
لا دَرَّ دَرُّ العَين إنْ ساعَتْ عيْني بدمعٍ غير مدْرار

ونلحظ الحزن بادي العمق وظلال الأسى تخيم على نفس الشاعر إذ يقول :

يا يومَ ثكلِك لم أذُقْ مثله أمرَّ عَيشي أيَّ إمْرار
أما على يومِك مِنْ ناصِرٍ أمْ غابَ عن يومك أنصاري
أُجيلُ في قبرك عيني وفي مجالِ أرواحٍ وأمْطار

ويكثر الشاعر في رثائه لابنته من ذكر القبور وتصويرها ووصفهـا بالصخور المشؤومة التي اختطفت منه ابنته الحبيبة فيقول :

أشتاقُ رؤياك فآتي فـلا أرى سوى تُرْبٍ وأحجار
وأعْمُرُ الصحراءَ في مأتمٍ عُمّارُهُ آلَفُ عُمّار
جليسُ أجداث كأنّي بها جَليسُ أنهـارٍ وأشجار
مالي بأرضٍ وطنٌ إنّمـا بباب قِنّسْرينَ أوطاري [2]
بابٌ به الآثارُ مَمْحُوَّةٌ وهُنَّ مِنْ أبْيَنَ آثاري

ويستمطر الشاعر الرحمة على جدث ابنته فيقول :

يا بابَ قِنّسرينَ لا تخلُ من سَحائبٍ عُونٍ وأبكا

---

(١) ديوان الصنوبري ص (٩٩ ـ ١٠١) .
(٢) باب قنسرين : أحد ابواب حلب ويقع بعد باب العراق الى جهة الغرب ـ الديوان (١٠٠) .

من مُزْنَةٍ تهمي ومن مقلةٍ تَبْكي بدَمْعٍ من دمٍ جاري

ويبكي الشاعر ابنته بكاءً مريراً ينبعث من أعماق قلبه وتبدو عاطفة الأبوة وكأنها تقفز خلال كل بيت من أبياتها وكل كلمة من كلماتها حتى يخيل إلينا أنّا نتصور بكاءه ونسمع صوت نحيبه وذلك إذ يقول :

النّارُ من قَلبي مخلوقَـــةٌ أمْ هو مخلوقٌ من النار ؟
كأنّ عَرْضَ الأرضِ بيْننا وبينَهُ خَمْسَةُ أشْبــار
يا نورَ عيني والتي لمْ تَزَلْ من نورها تقتبسُ أنواري
يا رُيّةَ القَبْر المضيء الذي يضيءُ ضوء الكوكب الساري
قُومي إلى زَوْرك أو فاجلسي فإنّهُمْ أكْرَمُ زُوّار
قُومي إلى دارك قد أنْكرَتْ صبرَكِ عنْها أيَّ إنْكار
استوحشَتْ دارُك من أهلِها واستوحَشَ الأهلُ من الدّار

ويبدو أن الصنوبري لم يكن له من الولد غير ليلى التي فجع فيها وهي في مَيْعَة الصبا فهو يقول :

واحِدَتي أمْسَيْتِ وحيدَةً من بَعْدِ أُلافٍ وسُمّار
كنتُ القَريرَ العين إذ كنت لي تحلُو أحـــاديثي وأخباري
وكانَ شِعْري يُتَغَنّى به فاستحْسَنَتْ للنّوح أشعاري

وقال يرثيها ويخاطب العيد[1] :

يا عيدَنا أوّلَ عيدٍ أتَى فقدتُ ليلى فيه من خِدرها

---

(١) الديوان (١٠٤) .

بورك َ للأمّة في عيـــدها فليس َ أمري فيه من أمرِها
عادوا من العيدِ إلى دُورِهمْ وعُدْتَ من عيدي إلى قبرِها

وقال يرثيها ويفديها بنفسه [1] :

إن كنتِ لا تقدَمينَ من سَفَرِكْ فإنّني راحلٌ على أثَرِكْ
يا ليتني كنتُ شاخصاً بصري وما رأيتُ الشخوص َ في بصَرِكْ

وقال يبكي ويستبكي الطيور ووحش الفلاة معه [2] :

أدورُ على جوانبِ قبرِ لَيلى وأبْكي حولَهُ بدَمٍ فضيضِ
أُراعي قَبرَها حَدَباً عَلَيْهِ مُراعاةَ المُمَرّضِ للمَريضِ
أواحدتي رُددْتِ وكنتِ قَرْضاً وهذا الدّهر مردودُ القُرُوضِ
أيا طيرَ الغصونِ اصغي لنَوحي ورُوضي مثلهُ إن شِئْتِ رُوضي
ويا وحشَ الفلاةِ روى عِطاشاً دموعي فاكرعي فيها وخُوضِ

ويتجلى الحزن الصادق العميق في رثاء الصنوبري لابنته الوحيدة ليلى وشعره يفيض لوعة ورقة وأساليب بكائه خالية من التصنع والادعاء .

فالصنوبري يُعَدُّ في مقدمة الباكين على أبنائهم لكثرة ما بكى ليلى في شعر صادق نابعٍ من القلب .

ولم يكن هؤلاء الشعراء وحدهم الذين طرقوا ميدان الرثاء إذ طرق هذا الباب كثير من الشعراء الذين كان هدفهم مرضاة الأمير والحصول على المال

---

(١) الديوان (١٠٤) .
(٢) الديوان (١٦٤) .

والزلفى إليه . ومن هؤلاء ابن نُباتة السعدي الذي عزَّى سيف الدولة عن ابنه أبي المطارح محمد ويستهل قصيدته بمدح الأمير فيقول [1] :

أيا من بشرْق الأرض والغربِ يمتري ... صَرَى الجودُ أو يطوي إليه الفيافيا
أقيموا لهُ إن كنتمُ من ثِقاتِهِ ... بكاةً على أمْواتِهِ وبواكيا
فإنَّ بميّافارقينَ حَفِيرَةً ... تركْنا عليها ناظرَ الجُودِ دامِيا

وينهج نهجاً تقليدياً في رثائه فيعدد مناقب الأمير وخصاله الحميدة :

من التغلبيّين الأولى لو رأيْتَهم ... رأيتَ رجالاً يخلُقونَ المعاليا
فَيا قَبْرَهُ جُدْ كلَّ أرضٍ بجودِهِ ... ولا تنتَظِرْ فيها السّحابَ الغَواديا
فإنّكَ لو تَدري بما فيكَ من ندىً ... تصدَّعْتَ حتى يصبحَ الجوُّ طامِيا
ويا يَوْمَهُ عزَّ الأنامِ لفَقْدِهِ ... فأنْتَ بمولاهُمْ تُعزّي المَوالِيا

ويخاطب سيف الدولة واصفاً صبره وجلده بقوله :

وحاشاكَ سيف الدولة اليومَ أن تُرى ... من الصّبرِ خلواً أو إلى الحزْنِ ظامِيا
فإنْ تكُ أفنت سطوةُ الدَّهرِ عُمْرَه ... فعمرُ عُلاه يترُكُ الدَّهْرَ فانِيا
وما منْهُ مفقودٌ إذا كنت حاضراً ... ولا منه مثكولٌ إذا كنت باقِيا

ويعزي الببّغاء سيف الدولة بابنه أبي المكارم بمقطوعة قصيرة فلا يحالفه التوفيق حيث يستهلها بذكر السرور والطرب وهو أمر مجانب للذوق فيقول[2]:

سرُورُنا بكَ فوقَ الهمِّ بالنّوبِ ... فما يغالبُنا حزْنٌ على طَرَبِ
إذا تجاوزْتِ الأقدارُ عنكَ فَهَلْ ... من واجبِ الشّكرِ أن يرتاع من سببِ

وينتقل الشاعر إلى ذم الدنيا لزيفها وغدرها وخداعها فيقول :

---

(١) ديوان ابن نباتة المخطوط (٥٣) .
(٢) نشوار المحاضرة (١ / ١٣٦) .

حتّامَ تخدعُنا الدّنْيا بزُخْرِفِهـا ولا تُحَصّلُنا منهُ على أدَبِ
نُسَرّ منها بما تجْني عواقِبُـهُ همّاً ونهرُبُ والآجالُ في الطّلَبِ

وخلاصة القول إن الصنوبري وأبا فراس يتقدمان على كافة شعراء البلاط الحمداني في شعر الرثاء من حيث الإحساس الصادق والعاطفة المتدفقة أما المتنبي فإن أغلب مراثيه كانت صناعية بحتةً لم تصدر عن عاطفة صادقة ولم يحركها ألم دفين ولعل قصيدته في رثاء خولة أخت سيف الدولة هي أروع ما قال من رثاء في تعزيته للأمير .

obeikandl.com

الهجـاء

إن المستعرض للهجاء عند شعراء سيف الدولة الحمداني يجده على نوعين : الهجاء السياسي ، وهو ما ينال من أعداء الأمير لأسباب تتصل بالسلطة أو السياسة أو السلطان والهجاء الشخصي الذي يتناول المَهجوّ في عرضه ونسبه وخُلَقه .

ونحن نعلم أن من أهم الدوافع التي دفعت سيف الدولة إلى تشجيع الشعراء على الالتفاف حوله راجع إلى رغبته في أن يتخذهم وسيلة لتوطيد ملكه ونشر صيته ، إذ كان الشعراء بمثابة أجهزة الإعلام والصحافة في عصرنا الحديث ولذلك كان سيف الدولة ينتظر من شعرائه بالإضافة للمدح أن يهجُوا خصومه ومنافسيه .

وإذا كان من السهل على الشاعر أن يمدح أميره بالصفات والخلال الحميدة فإنه من الصعب عليه أن يذمّ أعداء الأمير ويسلب منهم القيَم والمُثُل العليا وينسُبَ إليهم المثالب وبخاصة إذا كان هؤلاء الأمراء أقوياء ومن المحتمل أن ينتج عن هجائهم مخاطر وأزمات للأمير ودولته ناهيك بأن أهم حافز كان يحفز الشعراء للقدوم إلى حلب والعيش في رحاب الأمير إنما هو الطمع في عطائه وصلاته على أن يبقى الباب مفتوحاً إلى غيره من الملوك والحكام فيستطيعوا أن يلموا ببلادهم في أي وقت شاءوا .

كان هدف الشعراء – كما اتضح لنا – مدح الأمير ، أما ذم أعدائه

ومنافسيه فأمرٌ يحتاج إلى الحيطة والحذر ولذلك لا عجب أن يخْفتَ صوت أغلب الشعراء إلى أقصى حد وأن يكون المتنبي وأبو فراس والسَّرّيّ الرفّاء فرسان هذا الميدان وحدهم في بلاط الأمير .

ولقد تنوعت مجالات الهجاء السياسي تبعاً للأحداث الخارجية والداخلية التي مرت بها الدولة الحمدانية ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما حدث حين زحف معز الدولة البويهي من بغداد على الموصل وهزم ناصر الدولة الحمداني ، شقيق سيف الدولة الذي لجأ إلى أخيه في حلب فقال المتنبي يهدد وينذر [1] .

على الفُرات أعاصيرٌ وفي حلَبٍ تَوَحُّشٌ لملقَّى النصرُ مُقْتَبِلِ
تتلو أسنّتُهُ الكتْبَ التي نفَذَتْ ويجعلُ الخيل أبدالاً من الرسُلِ
يلقى الملوكَ فلا يلْقى سوى جَزَرٍ وما أعَدُّوا فلا يلقى سوى نفَلِ

فالمتنبي يقول بأن سيف الدولة يكتفي في البداية بحل المشكلات ودّياً ويتبادل الرسائل والكتب . فإذا أخفقت الطرق الودية فستزحف خيوله بدلاً من الرسائل . والملوك تدرك مقدار بأسه وقوته .

ويبدو أن التهديد لم يحقق نتائجه المتوَخّاة ، وكأن إذاعة الخبر بأن الأمير يريد أن يزحف لنصر أخيه لا تكفي في إنذار بغداد ودفع الضغط عن الموصل فيتظاهر سيف الدولة بالاستعداد للزحف وأنذر على لسان شاعره إنذاره الثاني وذلك سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فقال [2] :

ولهُ وإن وهَبَ المُلوكَ مواهِبٌ دَرُّ المُلوكِ لدَرّهـا أغْبارُ
للهِ قلبُكَ ما تخافَ من الرّدى ويخافُ أنْ يَدْنو إليكَ العارُ

---

(١) ديوان المتنبي : شرح عبد الرحمن البرقوقي (٣ / ١٦٤) .
(٢) ديوان المتنبي : شرح عبد الرحمن البرقوقي (٢ / ١٩١) .

وتحيـــدُ عن طَبْعِ الخلائقِ كلّهم ويحيدُ عنك الجحْفَلُ الجرّار
يا مَنْ يَعِزّ على الأعِزّةِ جارُهُ ويذِلُّ من سطَواتِهِ الجَبّارُ

يقول المتنبي : إن عطايا سيف الدولة تعد عطايا الملوك بالقياس إليها شيئاً لا يذكر وإن قلبه لا يخاف الهلاك ولكنه يتوقى أن يداني الأمير شيء فيه عارٌ ، كما أن الأميرَ يتنكّب كل شيء يدنّس الأخلاق من اللؤم وما إليه ويتنكّبه الجيش الكبير اتّقاءً لبأسه وشجاعته . وأن جاره يعز على الأعِزّة ، فلا يقدرون أن ينالوه بسوء والمتكبر العاني العظيم يصبح ذليلاً لديه إذا غضب .

ولما أتمّ سيف الدولة بناء مرعش [1] بعد قتاله مع الروم ، مدحه المتنبي وختم مدحه بأبيات يصرح فيها بذم ملوك الإسلام ويشتمهم في غير احتياط ويعرّض بالإخشيديين صراحة فيقول [2] :

كفى عجَباً أن يعجبَ الناسُ أنّهُ بنى مَرْعَشاً تبّاً لآرائهِمْ تبّا
وما الفَرْقُ ما بينَ الأنامِ وبينهُ إذا حَذِرَ المحذور واستصعب الصّعبا
لأمر أعَدّتْهُ الخِلافَةُ للعِدا وسمّتْه دون العالم الصّارم العضبا
ولا تفْتَرِقْ عنهُ الأسنّةُ رحمةً ولم تتركُ الشامَ الأعادي له حُبّا
ولكن نَفاهـا عنهُ غيرُ كريمةٍ كريمُ الثّنا ما سَبَّ قطُّ ولا سُبّا
وجيشٌ يُثَنّي كلَّ طَوْدٍ كأنهُ خريقُ رياحٍ واجهَتْ غصْناً رَطبا
كأنَّ نجومَ اللّيلِ خافَتْ مُغارَه فمدّتْ عليها من عجاجته حُجبا
فمن كان يُرْضي اللؤم والكفرَ مُلكُه فهذا الذي يُرْضي المكارِمَ والرَّبا

---

(١) مرعش : اول الثغور مما يلي جبل اللكام اخربتها الروم سنة ٣٣٧ فبناها سيف الدولة بن حمدان في سنة ٣٤١هـ وجاء الدمستق ليمنع من بنائها فقصده سيف الدولة فولى هاربا وأتم سيف الدولة عمارتها ـ نخبة تاريخية أدبية (٩٥ ـ ٩٦) .
(٢) ديوان المتنبي : شرح البرقوقي (١ / ١٩٣ ـ ١٩٤) .

فهو يشمّ الذين تعجبوا من بنائه لمرعش ويصانع الخلافة ولكنه يصارح الإخشيديين بالعداء فيشير إلى أنهم لم يتركوا الشام لسيف الدولة حباً له ، وإنما أخرجهم منها بالقوة ، ثم يختم قصيدته بذم الملوك والحكام الذين يقيمون ملكهم على اللؤم والكفر على حين يقيم سيف الدولة ملكه على طاعة ومرضاة الله .

ويهجُمُ المتنبي الخليفة العباسي تصريحاً لا تلميحاً في القصيدة التي أنشدها سيف الدولة في ميدان حلب عند عرض الجيش ، وهما على فرسيهما ، مُهنئاً له بعيد الأضحى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة وذلك حيث يقول [1] :

فيا عَجَباً من دائل أنتَ سَيفهُ أما يتوقّى شفرتيْ ما تَقَلّدا
ومن يجعلِ الضرغامَ بازاً لصيدِهِ تصيّدهُ الضرغامُ فيما تَصَيّدا
وما قَتَلَ الأحرارَ كالعفو عنهمُ ومَن لكَ بالحرّ الذي يحفظُ اليَدا

فالمتنبي يسخر من الخليفة الذي يتقلد سيفاً يوشك أن يقتله ، ويرسل للصيد بازاً يوشك أن يصيده .

وفي آخر قصيدة أنشدها المتنبي بحلب قال معرّضاً بحكام بغداد على الأرجح :

ألهَى الممالكَ عن فخرٍ قَفَلْتَ بهِ شرْبُ المُدامة والأوتارُ والنّغمُ
مُقلّداً فوقَ شكر اللهِ ذا شُطَبٍ لا تُستدامُ بأمضى منهما النّعَمُ

وأنفذ سيف الدولة هديةً إلى المتنبي أثناء وجوده في العراق بعد أن ترك مصر مغاضباً كافوراً الإخشيديَّ فشكره في لاميته المشهورة التي قال فيها معرضاً ومصرحاً وغير خائف لقربه من أولي الأمر في بغداد [2] :

---

(١) ديوان المتنبي : شرح البرقوقي (٣ / ٢٧٧ ــ ٢٧٨) .
(٢) ديوان المتنبي شرح البرقوقي (٣ / ٢٧٧ ــ ٢٧٨) .

ليسَ إلاّكَ يا عليّ هُمامٌ سيفُهُ دونَ عرضه مسْلولُ
كيف لا تأمنُ العراقُ ومصرٌ وسراياكَ دونهـــا والخيولُ
لو تحَرَّفتَ عن طريقِ الأعادي ربَطَ السّدْرَ خيلهم والنّخيلُ
ودرى من أعزَّهُ الدَّفعُ عنه فيهما أنّهُ الحقيرُ الذّليلُ
أنتَ طولَ الحياةِ للروم غازٍ فمتى الوعدُ أن يكونَ القُفولُ
وسوى الرّوم خلفَ ظهرك رومٌ فعلى أيّ جانبَيكَ تميـــلُ
قَعَدَ الناسُ كلهم عن مساعيـ ـكَ وقامتْ بها القنا والنّصولُ
ما الذي عنده تُدارُ المَنايـــا كالذي عنده تُدارُ الشّمولُ

فالمتنبي يخاطب الأمير الحمداني قائلاً : إنك الشجاع دون الملوك فكيف لا تأمن ديار المسلمين وأنت في وجه الروم تدفعهم عنها بجيوشك وخيولك ، ولولاك لاستباح الأعداء الديار ، ولو مِلْتَ عن طريقهم لأوغلوا في ديار المسلمين دون أن يقف في طريقهم أحد حتى يربطوا خيولهم بالسدر والنخيل التي بالعراق ومصر ، ولو تحرفت عن طريق الأعادي لعلم من أعزّهُ دفعُك عنه من ملوك مصر والعراق — يعني كافوراً — وآل بُوَيْه — إنه حقير ذليل وخلف ظهرك رومٌ سوى الروم — يريد آل بويه — فليس أعداؤك الروم فحسب ، وإنما أعداؤك كثر فأيّهم تقاتل ؟ ولم يبلغ أحد من الملوك مساعيك التي قامت بها رماحُك وسيوفك وأن غيرك من الملوك لمشتغلون باللهو وشربِ الخمر . أما أنت فشغلك الشاغل الحرب والقتال مع الأعداء .

ويرجح الدكتور طه حسين [1] دافع هجاء المتنبي السياسي في رحاب الأمير الحمداني لأمرين : أحدهما أنه حين كان يمدح سيف الدولة ويعجب بمضائه وحسن بلائه ، لم يكن يملك نفسه أن يعيب أولئك الملوك الآخرين

---

(١) مع المتنبي : الطبعة العاشرة (٢٤٨) .

الذين ينعمون بالحياة والعيش وسعة الملك وضخامة الثروة ، في غير مشقة ولا جهد .

والآخر أن سيف الدولة نفسه كان يظهر على بعض ما يدبّر له من الكيد في العراق أو في مصر ، وكان الأمر يفسد أو يدنو من الفساد بينه وبين بغداد أو الفسطاط : فيغري شاعره بأن يمسّ هذه الناحية من نواحي السياسة الإسلامية لينذر أو يغيظ .

وأما أبو فراس فإن صوته عالٍ في ميدان الهجاء السياسي وهجاؤه للعباسيين ينبع من عقيدة ومذهب فهو لا يكتم تشيعه ويوازن بين بني العباس وبني هاشم موازنة مستفيضة يقول فيها :

يا للرّجالِ أما للدِّينِ مُنتصفٌ منَ الطّغاةِ أما للدّينِ [illegible]
بَنُو عليٍّ رعايا في ديارِهِـــمُ والأمر تملكهُ النّسْوانُ [illegible]

فهو يستصرخ من حوله للانتقام لدين الله ونصرة بني علي المضطهدين في أرضهم على حين أمر الملك في الدولة العباسية يديره الخدم والنساء .

ويستطرد الشاعر فيعرض بالعباسيين الذين يدّعون الخلافة ويعترفون في أنفسهم خلفاء علماً بأنهم ليس بيدهم من أمرها شيء فالحكم بيد القادة من العجم فأي فخر لهم وغيرهم بيده الحكم ؟

وفي ذلك يقول :

أبْلِغْ لديكَ بني العبّاس مألكةً لا تدّعوا مُلكيا أملاكها العجَم

---

(١) شاعر بني حمدان (٧٩) .

أيُّ المفاخر أمستْ في منابركمْ وغيركم آمرٌ فيهنَّ محتكِمُ
وهلْ يزيدُكم مَن مفخرٍ علَمٌ وفي الخلافِ عليكم يخفِقُ العلَمُ

ويختتم أبو فراس قصيدته بهذه الموازنة التي ينعى فيها على العباسيين انغماسهم في اللهو والمجون واستباحة ما حرَّم الله بينما العلويون يتمسكون بالدين والورع والتقوى فيقول :

تبْدو التّلاوةَ من أبياتهمْ أبَداً وفي بيوتكم الأوتارُ والنّغَمُ
منكُمْ عُليّةُ أم منهم ؟ وكان لكم شيخُ المغنّيينَ إبراهيم أم لهُمُ (١)
إذا تلَوا سُورةً غنّى أمامَكُمُ قِفْ بالدّيارِ التي لم يعفها القِدَمُ
ما في ديارِهُمُ للخَمْرِ مُعْتَصرٌ ولا بيوتُهُم للسّوءِ مُعْتَصَمُ
ولا تبيتُ لهمْ خُنْثى تُنادمُهُمْ ولا يُرى لهُمْ قِرْدٌ لهُ حَشَمُ
الرّكنُ والبيتُ والأستارُ منزِلُهُم وزمزَمٌ والصّفا والحِجرُ والحَرَمُ

ومن الشعراء الذين طرقوا باب الهجاء السياسي في رحاب الأمير الشاعر السرّيّ الرفاء الذي هجا البويهيين في قصيدة مدح بها سيف الدولة وذكر موافاة أخيه ناصر الدولة حلَب ودخول معز الدولة الموْصل . فقال يعرّضُ بالبويهيين ويحثّ الحمدانيين على استرجاع بلادهم التي بهـا قبور الآباء والأجداد ليرحل عنها اللؤم واللئام (٢) .

أرى الخائنَ المغرورَ نامَ بأرضكُمْ كأنَّ المنايا الحُمرَ عنه نِيامُ
تَسَنَّمَ أعـلامَ الدّيارَ وأنْتُمُ لمن حلّ فيها غارِبٌ وسَنَامُ

---

(١) علية بنت المهدي أخت الرشيد مغنية مشهورة وابراهيم بن المهدي اخو الرشيد مغن مشهور كذلك .
(٢) ديوان السري الرفاء (٢٣٦ ـ ٢٣٧) .

فشقّ على الماضين من عظمائكمْ وهُمْ رِممٌ في تُربِها وعِظامُ
منازلُ مرفوعٌ لحاضركم بهـا قِبابٌ وللبـادي الأغَرّ خيامُ
تحنّ إلى القوْمِ الذين تَرَحَلُوا وتَرْجُفُ بالقوْمِ الذينَ أقاموا
تَهَلّلَ منها الغيثُ وهيَ عوابِسٌ وأسفر منها الصّبْحُ وهي ظَلامُ
فعُودوا ليحتلّ النّدى في خلالها ويرحَلَ لُؤمٌ حلّها ولِئامُ

ويستطرد الشاعر فيتهم معز الدولة البويهي بالغدر ونكث العهد فهو لا ذمام ولا ميثاق له ويخاطب الحمدانيين ألاّ يبرموا الصّلح معه حتى يستعيدوا ديارهم عنوةً وقوةً فيقول :

ولا تُمْكِنوهُ مِن ذمامِ سيوفكم فليسَ له عند السيوفِ ذِمامُ
فلا صُلح حتى تُستطارُ سواعِدٌ وتسقُطُ أيدٍ في اللّقاءِ وَهامُ
وحتى تَرُدَّ الشوقَ ذاتُ هَمَائمٍ يصرّفُها ساري الهُموم هُمامُ
وتشْرِقُ من شرقيّ دجلَةَ بالقَنا ضَحاضِحُ أنتُم سيلُها وإكامُ
وتقرُبُ من آجالِها الأسدُ عَنْوَةً فتقتحِمُ الآجامَ وهيَ كِرامُ
فحينئذٍ يصفُو السّماعُ لسامِعٍ وينساغُ للشُّرْبِ العِطاش مُدامُ

وإذا كان بعض الشعراء يحتاطون في هجائهم لأعداء سيف الدولة ومنافسيه من أمراء وحكام الدولة الإسلامية فإن هجاءهم للروم أعداء الإسلام والمسلمين كان على النقيض من ذلك بُعْداً عن الحرج .

ولقد كان لحروب سيف الدولة المستمرة مع الروم ظروف لا هوادة فيها تركت أقوى الأثر في شعر الهجاء السياسي .

ولقد كان المتنبي فارس هذا الميدان دون منافس . وعلى الرغم من أن المتنبي قدّم لنا في روميّاته شعراً من أروع ما قاله من الشعر ، إلاّ أن دورانه

المستمر حول سيف الدولة وشخصه جعل هجاءه في الروميات لا يخرج كثيراً عن طبيعة الهجاء في الشعر العربي ، وهو في هجائه يسخر من الروم وقوادهم . ومن أبلغ ما قال في هذا المجال هجاؤه لقائد الروم برداس الذي التقى بسيف الدولة قرب مرعش سنة ٣٤٢ هـ وفي هذه المعركة جرح برداس في وجهه ووقع ابنه قسطنطين أسيراً في يد سيف الدولة فضلاً عن أسرى آخرين من القواد [1] فقال المتنبي :

لعلّكَ يوماً يا دُمُستقُ عـائدٌ ... فكم هاربٍ ممّا إلَيْهِ يؤولُ
نجوتَ بإحدى مُهجَتَيكَ جريحَةً ... وخلّفْتَ إحدى مهجتَيكَ تَسيلُ
أتُسلِمُ للخَطّيّةِ ابنَكَ هارباً ... ويسكُنَ في الدّنيا إليكَ خَليلُ
أغركمُ طولُ الجيوشِ وعَرْضُها ... عليٌّ شروبٌ للجيوشِ أكُولُ
إذا لمْ تكنْ للَيثِ إلاّ فَريسَةً ... غذاهُ ولمْ ينفعكَ أنّك فِيلُ

فالمتنبي يسخر من قائد الروم الذي فرَّ من المعركة وترك ابنه أسيراً ، وهو لا يعلم أيُقتلُ أم يؤسَر فقد أسلمه للرماح وفرّ هارباً قبل أن يتعرف على مصيره ، والشاعر يتهكم تهكماً لاذعاً على ضخامة القائد وكثرة عدد جيشه التي لم تُغْنِ عنهُ شيئاً أمام شجاعة علي وفروسيته .

ومن شعره الرائع في هذا الصدد قوله يهجو الدمستق أيضاً :

أفي كل يوم ذا الدّمستق مُقْدِمٌ ... قفاهُ على الإقدامِ للوجه لائمُ
أيُنكِرُ ريح الليثِ حتى يذُوقَهُ ... وقد عرفَتْ ريحَ اللّيوثِ البهائمُ
وقد فجعَتْهُ بابنهِ وابنِ صهرِهِ ... وبالصهر حمْلاتُ الأميرِ الغواشمُ
مضى يشكرُ الأصحابَ في فَوْته الظُّبا ... لما شَغَلَتها هامُهُم والمعاصمُ

---

(١) زبدة الحلب (١ / ١٢٣ ـ ١٢٤) .

ويفْهَمُ صوتَ المشرفيّة فيهمُ على أن أصواتَ السيوفِ أعاجمُ
يُسَرّ بما أعطاكَ لا عن جَهالَةٍ ولكنَّ مغنوماً نجا منك غانمُ
ولستَ مَليكاً هازمــاً لنَظيرِهِ ولكنّكَ التوحيدُ للشركِ هازِمُ

فالشاعر يهجو هذا القائد الذي لا يتعظ من هزائمه المتلاحقة والتي تنتهي دوماً بالهزيمة والخذلان والذي فرَّ من المعركةمسروراً أن ينجو بنفسه بعد أن فُجِـع بابنه وابن صهره .

والمتنبي لا يستنكف عن ذم الجيوش المقاتلة من المسلمين إذا خذلوا أميرهم.

قُلْ للدّمُستقِ إن المسلمينَ لكم خافوا الأميرَ فجازاهم بما صنعوا
وجدتموهُمْ نِياماً في دمائِكمُ كأنَّ قتلاكمُ أياهُمُ فَجَعوا
لا تحسبوا من أسرتم ذا رمقٍ فليسَ يأكلُ إلاّ الميّتَ الضّبُعُ
وإنما عرَض اللهُ الجنودَ بِكُمْ لكي يكونوا بلا فسلٍ إذا رجَعوا[1]

فالمتنبي يتحدث هذه المرة إلى الدمستق من موقع الهزيمة ، وهو يقول له لا تظن أنك انتصرت على سيف الدولة فحقيقة ما حدث غيرُ ما تظن أو تتوهم ، فقد خان الجند سيف الدولة وكان من هزمتهم أشبه بالموتى من الضعف وخور العزيمة ، لأنكم كالضباع لا تنقَضّون إلاّ على الموتى وقد اختبر الله جيش سيف الدولة بهذه الهزيمة حتى يتخلص من عناصر الضعف والخَور فيه . ولا يبقى في جيشه إلاّ الشجعان والأبطال .

أما أبو فراس فقد ذاق من أسر الروم ما ذاق ، فلم يَخَفْ بأسهم وشدّتهم فافتخر وتطرق إلى هجائهم وهجاء بطارقتهم ورؤسائهم ، ولقد وقعت بين

---

(١) الديوان : شرح العكبري (٢ / ٢٢٠) .

أبي فراس والدمستق مناظرة وصف فيها الدمستق العرب بأنهم كتاب لا فرسان فثار أبو فراس وهجا الدمستق وقومه ووصفه بالكلب [1] .

وجرت بينهما مناظرة أخرى حاول الدمستق فيها أن يعرّض بدين أبي فراس فهجاه ووصفه بالعلج وأنكر عليه محاولته تبيُّن الحلال من الحرام ووصف بطارقته بالتيوس [2] فقال :

أما من أعجب الأشياءِ عِلْجٌ يعرّفُني الحلالَ من الحرامِ
وتكنُفُه بطارقَةُ تُيوسٌ تُباري بالعَثَانينِ الضّخامِ
لهمْ خَلْقُ الحميرِ فلستَ تلقى فتىً منهم يسير بلا حِزامِ
أناجي كل طبلٍ هَرْثَمِيٍّ عريضِ الذّقْنِ بصّاقِ الكلامِ

فهو يسخر من الروم سخرية مريرة ويعجب للعلوج كيف يقفون لنقاش المسلمين ، وفيهم البطارقة أصحاب اللّحى الطويلة التي رأى فيها شَبَه التيوس ، وألْبِستَهُم ذاتُ أحزمة تصوَّر فيها خَلْق الحَمير . وأضحكتْه الذّقون والبصاق يتطاير من خلالها إذا ما تحدث القوم .

وفي مجال هجاء القبائل البدوية الثائرة يعلو أيضاً صوتا المتنبي وأبي فراس ولا شك أن هجاء القبائل يعيدنا إلى موضوع الحَيْطة والحذر فهذه القبائل رعية سيف الدولة وعُدّته في حربه ولا يستطيع الأمير أن يقطع كلّ الخيوط التي تربطه بها ، كما أنه لم يكن من السهل أن يَمَسّ الشاعر هذه القبائل بأذىً من القول ثم ينجو من عدوانها وبطشها وهو يعيش قريباً منها . ولذلك سلكوا هذا المسلك بحذر وتروٍ مبتعدين في أكثر الأحيان عما لا يليق بكرامة هذه القبائل العربية ، فكان هجاء هذه القبائل مجازاً يختلط فيه الترغيب بالترهيب .

---

(١) ديوان ابي فراس (٢ / ٣٧) .
(٢) المصدر نفسه (٢ / ٢٧٣) .

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة تجمعت قبائل من قيس وثارت على سيف الدولة فنهض لها الأمير وأخمد ثورتها . وفي ذلك يقول أبو فراس :

ولمّا أن طغَتْ سُفهاءُ كعْبٍ فتحْنا بينهم للحربِ بابا
منحناها الحَرائِبَ غيرَ أنا إذا جارَتْ منحناها الحِرابا
وأبْعَدْنا لسوء الفعل كَعباً وأدْنَيْنا لطاعتها كِلابا
فلما أيْقَنوا أنّ لا غِياثٌ دعَوْهُ للمَغوثَةِ فاستجابا
وعادَ إلى الجميلِ لهمْ فعادوا وقد مدّوا لصارمِهِ الرِّقابا
أمَرَّ عليهم خَوفاً وأمْناً أذاقهمُ بهِ أرَباً وصابا

وإن المتأمل في هذه الأبيات يلحظ تردد الشاعر بين الترغيب والترهيب، فالشاعر يقرر أن كعباً هي التي طَغَت وأن الأمير لم يحارب إلاّ رداً لطغيانها ، ثم إنّه يقصِرُ الاتهام على سفهاء القبيلة ولا يعممه على القبيلة بأسرها . ويتأرجح الشاعر بين الترغيب والترهيب فيقول : اننا منحنا العطايا لهذه القبائل حتى جارت وظلمت ، فمنحناها الرماح والحِراب ردّاً على جورها ثم يوازن بين كعب المتمردة وكلاب المطيعة ، ويقرر أنه عندما ثابت القبائل الباغية إلى رشدها واستغاثوا بالأمير خاضعين أغاثهم .

ويختتم أبو فراس هذه الأبيات كاشفاً سياسة الأمير إزاء هذه القبائل تلك السياسة المتمثلة في الترغيب والترهيب فهو يذيقهم الشّهد مرة والعلقم مرةً أخرى .

ويصور المتنبي تمرد كِلاب فيقول :

ترفّقْ أيها المولى عليهمْ فإنّ الوفقَ بالجاني عتابُ
وإنّهمُ عبادُك حيث كانوا إذا تدعو لحادثةٍ أجابوا

وعين المخطئين هُمْ وليسوا بأول معشر خَطِئوا فتابوا

ويعرِّضُ المتنبي بالذين حرّضوا بني كِلاب على خروجهم عن طاعة الأمير فيقول :

وجُرْمٌ جرَّه سفهاءُ قوْمٍ وحلَّ بغيرِ جارِمه العذابُ

ويعيب المتنبي على القبائل المتمردة عملها لتحويلها الأمير عن قتال الأعداء من الروم :

وكنتَ السيفَ قائمُهُ إليهمْ وفي الأعداء حدُّكَ والغرارُ
فأمْسَتْ بالبديَّةِ شَفْرَتاهُ وأمسى خلفَ قائمه الحيارُ (١)

وأما بالنسبة للهجاء الشخصي فقد نبع أغلبه من التنافس بين الشعراء على الحظوة لدى الأمير ودارت أغلب معاني الشعراء حول تحقير شعر الآخرين واتهامهم بالسرقة للمعاني والأفكار .

والمتنبي يتحدى الحُسّاد ويهزأ بشعرهم ويلخص قضيته معهم فيقول :

أرى المتشاعرينَ قد غرُّوا بذمّي ومن ذا يحمَدُ الداءَ العُضالا ؟
ومَن يكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مريضٍ يجدْ مُرّاً به الماءَ الزّلالا

ويحرض سيف الدولة على الشعراء الذين لا يُبينونَ في مدحهم والذين لا يُوفّون صفات الأمير وسجاياه حقّها من المدح فيقول :

غَضِبْتُ لهُ لمّا رأيتُ صِفاتِه بلاواصفٍ والشعرَ تهذي طماطمه

---

(١) البداية والحيار : ماءان بأرضهم كانوا ينزلون عليهما .

ويهزأ المتنبي من شعر الشعراء فيقول لسيف الدولة :

أرى كلَّ يومٍ تحتَ ضِبْني شُوَيْعِرٌ ضعيفٌ يقاومُني قصيرٌ يُطاوِلُ
لساني بنطْقي صامتٌ عنهُ عاذلٌ وقلبي بصمتي ضاحكٌ منه هازلُ

وتَنشبُ معركةٌ أخرى بين الشاعر السريّ الرفّاء وبين الخالديّين أبي عثمان وأبي بكر يتهمهما فيها بسرقة شعره واغتصابه فيقول في هجاء أحدهما[1]

لا بُدّ من نفثَةِ مَصدُورِ فحاذِرُوا صولَةَ مخْدُورِ
قد أنْسَتِ العالَمَ غاراتُهُ في الشّعرِ غاراتِ المغاويرِ
أتْكلَني غِيدَ قوافٍ غَدَتْ أبْهى من الغِيدِ المَعاطيرِ
أطْيَبُ ريحاً من نسيم الصَّبا جاءتْ بريّا الوَرْدِ من حُورِ
من بعد مَا فتّحْتُ أنوارها فابتسمَتْ مِثْلَ الأزاهيرِ
وباتَ فكْري تَعِباً بينَهـا ينقُشُها نَقْشَ الدَّنانيرِ

ونلحظ أن الشاعر يبدأ هجاءه بالتهديد والوعيد ثم ينتقل إلى الهجاء فيصف الخالديَّ بأنه سارق أغار على شعره وقوافيه التي هي أطيب ريحاً من نسيم الصَّبا وأجمل من الأزاهير . ولقد تعب فكره في نقشها وصناعتها فنقشها كما تنقش الدنانير .

وقال السريّ يتظلم إلى أبي الفوارس سلامة بن فهد ويتهم الخالديين بسرقة شعره[2] :

هل الصبرُ مجْدٍ حين أدَّرِعُ الصّبرا ؟ وهل ناصرٌ للشعرِ يوسِعُه نصرا ؟

---

(١) ديوان السري الرفاء (١٣٣) .
(٢) المصدر نفسه (١٢٤) .

تحيّف شعري يا ابن فهْدٍ مُصالِتٌ ظلومٌ فقد أعْدمْت منه وقد أثرى
وفي كلّ يومٍ للغَبِيّيْن غــارةٌ ترَوّعُ الفاظي المحجّلةَ الغُرّا
إذا عنَّ لي معنىً تضاحك لفظُه كما ضاحكَ النّوارُ في روضه الغُدرا
غريبٌ كشَطرِ البرقِ لما تبَسّمتْ مخائلهُ للفِكْرِ أودعتُهُ سَطْرا
فوَجْهٌ من الفتيانِ يمسحُ وجهَهُ وصدْرٌ من الأقوامِ يُسكنه الصَّدرا

فالسريّ يبدأ الهجاء بشكوى الخالديين اللذين سرقا شعره ، ولقد أثريا من شعره بينما هو يتعذب في الفاقة والفقر . ويتهم الخالديين بالغَباء ويشبّه شعره الرقيق بالنّوّار في روضة خلاّبة .

ثم ينتقل الشاعر فيتهجّم الخالديين اللذين أطفآ نجوم شعره بسرقتهما ودنّسا تلك المطارِفَ والأزُر فيقول [1] :

تناولَهُ مُشْرٍ منَ الجهْلِ مُعْدِمٌ من الحِلْمِ معذورٌ متى خلعَ العُذّرا
فبعّدَ ما قَرَّبَتُ منهُ غَبــاوَةً وردَّدَ ما سهّلْتُ من لفظهِ وعْرا
فمهلاً أبــا عثمانَ مهلاً فإنّما يغارُ على الأشعار من عشقَ الشّعْرا
لأطفأتُما تلكَ النجومَ بــأسرها ودنّسْتُما تلكَ المطارِفَ والأزْرا
فويحكُما هلاّ بشطْرٍ قَنِعْتُمــا وأبْقَيتُما لي من محاسنها شطْرا ؟
لئِنْ وترَتْ كفّي سعيدَ بن هاشم فقد نال من شعري بغارته الوَتْرا

وقال يهجو الخالديين في قصيدة مدح بها الأمير أبا البركات لطفَ الله ابن ناصر الدولة ويتظلم إليه منهما [2] .

أشكو إليكَ حليفَيْ غارةٍ شَهَرا سيفَ الشقاق على ديباجِ أشعاري

---

(١) ديوان السري (١٢٤) .
(٢) ديوان السري (١١٤) .

ذئبَين لو ظَفِرا بالشعرِ في حَرَمٍ لمزَّقاهُ بـأنيابٍ وأظفـارِ
سَلاّ عليهِ سيوفَ البَغْيِ مُصْلَتةً في جَحفَلٍ من شنيعِ الظلم جرّارِ
وأرخصاهُ فظلّ العطرُ مُنْتَهَباً لديهما يُشْتَرى من غير عَطّارِ
لطائِمُ المِسكِ والكافورِ فائِحَةٌ منهُ ومنتخبُ الهنديّ والغـارِ

فالسريّ يشكو ويتظلم من الخالديين ثم يصفهما بالذئبين المفترسين لغُرَر شعره الذي تفوح منه رائحة المسك والكافور .

ثم يتهمهما ببيع شعره ويصوّر لصوصيتهما بقوله [1] :

باعا عرائِسَ شعري بالعراق فلا تبْعُدْ سباياهُ من عُونٍ وأبْكارِ
مجهولَةُ القَدْرِ مظلومٌ عقـائلُها مقسومَةٌ بينَ جُهّالٍ وأعْمارِ
ما كانَ ضرّهُما والدرُّ ذو خَطَرٍ إن حلّياهُ ملوكاً ذاتَ أخطارِ
وما رأى الناسُ سبْياً مثلَ سبْيِهما بِيعتْ نَفيستُهُ ظلماً بدينارِ
إذا كساكَ ثيابَ المدحِ سالِبُها يوماً فأنك أنتَ المكتسي العاري
واللهِ ما مَدَحا حيّاً ولا رَثَيا مَيْتاً ولا افتخرا إلاّ بأشْعاري
إن تَوَّجاكَ بدرٌّ فهوَ من لُجَجي أو خَتّماكَ بياقُوتٍ فأحْجاري

ويبدو أن الأدباء في الشام والعراق قد انقسموا إلى فريقين إزاء الخصومة الناشئة بين السريّ والخالديين : فريق تعصبوا للخالديين وآخرون تعصبوا عليهما ولعل هذا السبب يسوّغُ هجاء السريّ لغير الخالديين من الشعراء الذين اتهمهم بمثل ما اتهم به الخالديين من سرقة شعره .

ولقد عاب السريّ على أبي محمد الشّمشاطي [2] انحرافه عنه إلى الخالدين

---

(١) ديوان السري (١١٥) .
(٢) الشمشاطي : هو شاعر اديب اصله من شمشاط (من ارمينية) واتصل بآل حمدان . ديوان السري (١٧٤) .

وتفضيله إياهما وقال يحذّره منهما ويهجوهما [1] :

أبا حَسَنٍ إن المكارم جَمّةٌ وأحسنُها إنصافُ خِلٍّ مناصفِ
تناسيتَ ودّي من قديمٍ وحادثٍ وأغفلتَ شكري من تليدٍ وطارفِ

وأهملتَني حتى تحَيّفَنيَ العِدا وكم ذُدْتَ عني الحيفَ من كل حائفِ
عصائبُ رَقّ السّتْرُ بيني وبينَهمْ فمنْ ساترٍ ما في الضميرِ وكاشفِ
يدِبّونَ في ليلِ النّفاقِ كأنهم عقاربُ دَبّتْ في دُجىً متكاثفِ

يذكّر السريّ أبا حسن بالمحبة القديمة التي تربطهما مع بعض ويلومه على إهماله له ثم ينتقل إلى نعت الخالديين بالسرقة والنفاق ويشبههما بالعقارب الهائمة التي تعبث في دجى الظلام الكثيف .

ويبدو أن محاولة تحذير الشمشاطي قد باءت بالفشل إذ انتصر للخالديين ووقف ضد السريّ فلذلك هجاه السريّ واتهمه أنه قد ادّعى شعره [2] :

رمَى اللهُ رِئْبالَ القَريضِ برئبالِ ومُغتالَ ما حَبّرتُ منه بمغتالِ [3]
حجَبْتُ عن الأسماعِ منهُ بقيّةً مقيّدةً عن كلّ حلّ وترْحالِ
وأطبقْتُ إشْفاقاً عليهِ حقاقه فصار وما أرخَصْت من حلّيه غالي
وحذرني أن يُستباحَ حريمُهُ تذكر بيت يقطع الأرض جوّالِ
ألا يحبِسُ الشيخُ الغَيُورُ بَناتَهُ مخافةَ جنيّ الشمائلِ بَطّالِ

يصف السريّ أبا حسن الشمشاطي بأنه ذئب مختلس للشعر ولذلك فإنه

---

(١) ديوان السري (١٧٥) .
(٢) ديوان السري (٢٢٩) .
(٣) الرئبال : الذئب .

يحجب عن أسماعه بقية أشعاره خوفاً من أن يسطو عليهـا وهو يحبس شعره ويتوجس عليه منه كما يحبس الشيخ الغيور بناتِه خوفاً من الفاسق الغدار .

وهجا السريّ كذلك أبا العباس النامي الذي كان جزاراً واتهمه أيضاً بسرقة شعره فقال [1] :

أجزّارَ بابَ الشامِ كيف وجدتَني ... وأنتَ جزُورٌ بينَ نابي ومِخْلَبي ؟
أراكَ انتهبْتَ الشعرَ ثمّ خبَأتَهُ ... على الناس فعل الخائفِ المترقبِ
تباعَدْتَ عن باقورة الشّعر بالمَدى ... إليهِ فلمْ تَخرج ولمْ تتحوبِ
ولمّا جرى الحذاق في ضوء صبحه ... تعثرت منهُ في ضبابَةِ غيهبِ

فالسريّ يهدّد النامي في مطلع قصيدته ثم يتهمه بالسرقة والتعثر في نظم القريض والشعر حيث يقول [2] :

وكيفَ تنالُ عارفَتي وعفْوي ... ولم تمْحُ اعترافِكَ باعترافِ
أرى الجزّارَ هيّجَني وولّى ... وكاشَفَني وأسرع في انكشافي
ورقّعَ شِعرَهُ بعيونِ شِعري ... فشابَ الشُّهدَ بالسّمّ الزّعافِ

ويتخذ السريّ من مهنة النامي مجالاً للسخرية ، ويصفه بأنه لا يحسن قول الشعر ونظمه :

لقد شقيتْ بمهنتكَ الأضاحي ... كما شقيَتْ بغارتك القوافي
توعّر نهجُها بك وهو سَهْلٌ ... وكُدِّر وردُها بكَ وهو صافي

---

(١) ديوان السري (٤٥) .
(٢) ديوان السري (١٧٧) .

فتكْتَ بها مُثَقّفَةَ النّواحي على فكرٍ أشَدّ من الثّقافِ

وللخالديين أيضاً هجاء مرّ ساخر ومثاله قول أبي بكر بن هاشم الخالدي في هجاء شاعر [1] :

لو أنّ في فمهِ جَمراً وأنْشدها شعراً لما ضَرَّهُ من بَرَّدَ إنشادهْ

وقال في هجاء شاعر آخر أيضاً [2] :

لما تبدّى الكوفيُّ يُنْشِدُنا قُلنا له : طعنَةً وطاعونا
تجمَعُ يا أحمَقَ العِبادِ لنــا شعرَكَ في بَرْدِهِ وكانونا

وقال أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدي في هجاء أحد الشعراء [3] :

شعرُ عبدِ السّلامِ فيه رديء ومحالٌ وساقِطٌ وبديعُ
فهو مثلُ الزّمانِ فيه مصيف وخريف وشَتْوةٌ وربيعُ

فانظر إلى البراعة في تشبيه الشعر بالزمان واختيار الأقسام من الفصول بما يقابل الأقسام من ألوان القول .

وقال يهجو رجلاً حلق سباله بعد أن أطاله [4] :

حَلَقْتَ سِبالَكَ جهلاً بما يُواري من النّكراتِ القِباحْ
فعَذّبْتَ صحبكَ حتى المساء وعذّبتَ عرسكَ حتى الصباحْ
فلا أبعدَ اللهُ ذاكَ السّبالَ فقد كان سِتراً على مُستراحْ

---

(١) ديوان الخالديين (٥٢) .
(٢) المصدر نفسه (٩٧) .
(٣) المصدر نفسه (١٣٩) .
(٤) المصدر نفسه (١٥٨) .

ولقد طرق كُشاجم ميدان الهجاء الشخصي فكان هجاؤه رسماً ساخراً هازلاً اعتمد به على التصوير وبراعة الرسم وحذا في ذلك حذوَ أبي تمام ومثاله هجاؤه لإحدى الجواري بقوله [1] :

لصديقٍ لنا صديقةُ سوءٍ ... رحم اللهُ من لحَاهُ عليها
يُقبلُ الليلُ حين تقبلُ لولاً ... وضَحٌ في سَوادِ سالِفَيها
رُبَّ فأر وخُنْفساءَ أثيرا ... من خلالِ الشقوقِ من قدَميها
إنها مثلُ لونها فإذا ما ... زَفَرَتْ خِلْتَ ساقَها بيَدَيها
وإذا حان أن تُوَدّعَ وارِتْ ... نابها في اليسارِ من منخرَيها
وصحيحٍ مُسَلّمٍ صَرَعَتْهُ ... نَفَحاتُ الصِّنانِ من إبْطَيها

فالشاعر يصور هذه الجارية تصويراً ساخراً لاذعاً فهي سوداء تحاكي الليل وقدماها مشقوقتان وتنبعث منها رائحة كريهة تعافها النفس .

وقال كشاجم يهجو ويسخر من عامل بريد [2] :

صِرْتَ يا عامل البريدِ مَقيتاً ... وقديماً إليَّ كنتَ حبيبا
كنتَ تستثقِلُ الرقيبَ فقد صِرْ ... تَ علينا بما وليتَ رقيبا
شَنَئَتْكَ النفوسُ وانحرفتْ عنـ ... ـكَ قلوبٌ وكنتَ تسبي القلوبا
أفلا يعجَبُ الأنامُ لشخصٍ ... صارَ قِرْداً وكان ظبياً ربيبا

فعبارات التقريع والاستهزاء بعامل البريد واضحة سافرة صاغها كشاجم ببراعة وحذق فصديق الأمس أصبح مقيتاً تعافه النفوس والظبي الجميل أصبح قرداً كريه المنظر .

---

(١) ديوان كشاجم المخطوط (١٦٢) .
(٢) ديوان كشاجم المخطوط (١٢) .

وللشاعر الصنوبري أيضاً هجاء هزليّ ساخر ومثال ذلك قوله [1] :

في أبي جعفر وفي وسْوَاسِهْ ... عبْرَةٌ للّبيبِ من جُلاّسِهْ
لاحِنٌ في اسمه على ما ادّعى في ... عِلَلِ النحو من لطيف قياسِهْ
عارفٌ عند نفسه وهو لا يعْـ ... ـرِفُ يا قومُ رِجْله من راسِهْ
لبسَ القَبْعَ كي يموّه بالقَبْـ ... ـعِ علينا ولم يكُنْ من لِباسِهْ
مثلُ من يختم القراطيسَ من غَيْـ ... ـرِ كتابٍ يكونُ في قِرْطاسِهْ

فالصنوبري يصمُ أبا جعفر بالادعاء والجهل فهو يدّعي العِلم في عِلَل النحو ويلحُن في اسمه ولا يعرف من النحو شيئاً كما أنه يعتمد على التضليل والتمويه والخداع كي يوهم جلاّسه بالعلم والمعرفة .

وقال في هجاء أحول :

تبّاً لـــذا الأحولِ ما أرقعَهْ ... كم تَرَكَ الحزمَ وكمْ ضيّعهْ
وأيُّ رأيٍ لأمـــرىءٍ إنْ رَأى ... شخصينِ من قرْب يقلْ : أربعهْ
قد أفْزَعَتْ حولتُكَ الحُولَ يا ... من لم تزلْ حولتُهُ مُفزِعَهْ
أُفٍّ لهذا الوَجْهَ وَجْهـــاً فَما ... أقبحَ ذا الوَجْـــهَ وما أشْنعَهْ
قد لَبِسَ المَقْتَ رِداءً وقـــد ... أزَّرَهُ الخِزْيُ وقـــد قنّعَهْ

ومجمل القول أن الهجاء في رحاب سيف الدولة الحمداني اختلف باختلاف المهجو فالأمراء والحكام من المسلمين الذين نابذوا سيف الدولة العداء كان التعريض بهم بوصفهم بالانغماس في المجون واللهو أما هجاء الروم فكان

---

(١) ديوان الصنوبري (٢٠٤) .

بنعتهم بالجبن والخسة والهزيمة وهجاء القبائل بعدم تقديرهم للأمور وشغلهم لسيف الدولة عن الروم عدو الإسلام والمسلمين .

وكان الهجاء الشخصي ينصب على الاتهام بالسرقة الشعرية والانتحال والادعاء وسبب ذلك كما وضحنا سابقاً يرجع للتنافس الأدبي في الحصول على حظوة الأمير والقربى منه .

وابتعد الهجاء بنوعيه عن تقليد القديم من حيث التعرض للأنساب وغلبت عليه خفّة الروح والنكتة . كما أنه كان يميل إلى العفة ويبتعد عن الإغراق في الفحش واستعمال الألفاظ البذيئة وذكر العورات في غير ما تحرّج أو استحياء كما كان الحال عند شعراء العراق كالحجّاج وابن سُكُرة . وإن كان بعض الشعراء يُسِفّ أحياناً فيلجأ إلى المجون السافر في هجائه كقول الصنوبري [1] :

يا مَنْ أحَلَّ به الرّزيّـهْ وأعـاد نعمتَهُ بَلِيّهْ
حَظيَ الرَّدى بكَ إذْ غدَتْ لكَ بنت عمار حظيّهْ
قُـلْ لي وكَيْفَ . . . مع دلّ قامتكَ القَميّـهْ
أنْتَ البَعـوضـةُ قِلّـةً وكـأنّهـا جَمَلُ الضَّحيّهْ

ولعل بيئة حلب في ظل سيف الدولة وهي المطبوعة بالفروسية والأنفة والمعتزة بالإسلام والعروبة — كان لها أكبر الأثر في هذا الطابع الذي غلب على شعر الشعراء .

ونرى أن الهجاء يعد ركناً أساسياً في دراسة تاريخ حلب السياسي والأدبي في عهد سيف الدولة وذلك لكونه يدل دلالة واضحة على السياسة التي انتهجها الأمير وعلى الصراع والمشاحنات الأدبية التي كانت تستعر نيرانها في بلاطه .

---

(١) اليتيمة (٢ / ٢٠٦) .

الغزل

الغزل من أقدم الفنون الشعرية في الأدب العربي وأكثرها شيوعاً لاتصاله الوثيق بالطبيعة الإنسانية . فالحب لغة عالمية وميل فطري في كل بيئة ووصف المحبوبة والتغني بجمالها إحساس تلقائي . والغزل لغة الأفئدة الناطقة وحركة القلوب الخافقة وإشارة العيون المحدقة .

وشعراء الغزل في بلاط سيف الدولة الحمداني كُثْرٌ من كاثر وما من شاعر منهم إلاّ وله في الغزل قصائد ومقطوعات كثيرة وصور ممتعة وشيقة جميلة . ويمكننا أن نحصر أنواع الغزل في رحاب سيف الدولة في نوعين : ١ — الغزل التقليدي ، ٢ — والغزل الحسي بنوعيه الفاحش الصريح وغير الفاحش العفيف .

والغزل التقليدي غزل صناعي بحت لا أثر فيه للروح ولا صلة بينه وبين المعاني وهذا النوع من الغزل لم يصدر عن عاطفة الحب الصادقة ولذلك كان معظمه ضعيفاً متكلّفاً .

ويتجلى هذا النوع من الغزل في مطلع قصائد المدح والفخر والتشويق للأصدقاء ومن الشعراء الذين نهجوا هذا النهج المتنبي وأبو فراس والسريّ

الرفاء والصنوبري والوأواء الدمشقي ومن ذلك قول المتنبي في مطلع قصيدة مدح بها سيف الدولة [1] .

لعَيْنَيْكِ ما يَلقى الفُؤادُ وما لَقي ... وللحبّ ما لم يبقَ منّي وما بقي
وما كنتُ ممن يدخُل العشقُ قَلْبَه ... ولكنّ من يبصر جفونكِ يعشَقِ
وبين الرضا والسّخط والقرْبِ والنّوى ... مجالٌ لدمع المُقلـــةِ المترقرقِ
وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربّه ... وفي الهَجْر فهو الدّهر يرجو ويتّقي

فالشاعر يتكلف الحب ويدعي العشق وغزله صناعي يخلو من حرارة الجوى والهيام .

وقال المتنبي أيضاً في مطلع قصيدة مدح بها سيف الدولة عندما استنقذ أبا وائل تغلب بن داود من أسر الخارجي [2] :

إلا مَ طَماعيَةُ العاذلِ ... ولا أرى في الحبّ للعاقلِ
يُراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطّباعُ على الناقلِ
وإنّي لأعشقُ من عشقكمْ ... نحولي وكلُّ امرىءٍ ناحلِ
ولو زُلتُمُ ثم لم أبْكِكُمْ ... بكيتُ على حبّي الزائلِ

ونلحظ من أبيات المتنبي أنه لم يكن غزلاً وإنما كان متكلفاً وهو ليس بالرقيق الذي يأسره الهوى ويخفق له قلبه ويسيل دمعه ويغني لسانه .

ويظهر أن المتنبي قال الغزَل جرْياً على سُنّة الشعراء في افتتاح قصائدهم ولكنّ نفسَه لم تطرب لهذا النسق فثار عليه وانتقد ابتداء الشعر بالنسيب .

---

(١) ديوان المتنبي : شرح البرقوقي (٣ / ٤٨ ـ ٤٩) .
(٢) المرجع نفسه (١٥٢) .

إذا كانَ مدْحٌ فالنّسيبُ المُقَدَّمُ أكلٌّ فصيح قالَ شعراً متيّمُ

وذكر ابنُ رشيق أن من الشعراء من لا يقدّم لقصيدته بالنسيب وهذا ما يعرّفُ بالوثب أو البتر والقطع والكسح والاقتضاب ، والقصيدة إذا كانت على تلك الحال تُعَدّ بتراء كالخطبةالبتراء التي لا يبتدأ فيها بحمد الله عز وجل[1] أو باسمه .

أما أبو فراس فقد استهل حوالى ثلاثين قصيدة من شعره بالمقدمات التقليدية واقتصر من ذلك على فنون بعينها كالفخر والأخويّات . ولقد قلد أبو فراس الأقدمين من الشعراء فوقف على الأطلال وأزجى إليها تحياته بعد أن خلت من الأحبة وأضحت فناء للهموم وتحدث في مقدمته هذه عن اللائمين في الحب وحضّ على عدم الإصغاء إليهم فقال[2] :

أيها العاذلات في الحبّ إنّ الـ ـعَذْلَ في الحبّ ينتهي أغْراءَ
وإذا ما هَجَرْتَ بالعذلِ حُبّاً كنت والعاذلات فيه سَواءَ
كمْ وِدادٍ حَرَمْته أُم عَمرٍو ووِدادٍ مُنحتْـهُ أسْماءَ

وقد مزج أبو فراس في بعض مقدماته بين الغزل والفروسية فجعل للحب جيشاً مغيراً خيله ورماحه الكتب وسهامه الألفاظ وسيوفه الرسائل والألحاظ[3] :

هوانـا غريبٌ شَزَّبَ الخيل والقنا لنا كتبٌ والباتِراتُ رسائلُ[4]
أُغَرْنَ على قلبي بخيلٍ من الهوى فطاردَ عنهنَّ الغَزالَ المُغازِلُ
بأسْهُمِ لفْظٍ لم تركّب نِصالُها وأسياف لحْظٍ ما جلّتها الصَّياملُ

(١) العمدة : ابن رشيق (١ / ٢٣٢) .
(٢) ديوان ابي فراس (٢ / ٤٤٣) .
(٣) الديوان (٢ / ٢٩٠) .
(٤) شزب : الشازب الضامر من اليابس والناس وغيرهم واكثر ما يستعمل في الخيل . اللسان : مادة شزب .

وقائعَ قَتْلى الحبّ فيهـا كثيرةٌ ولم يشتهر سيفٌ ولا هَزَّ ذابِلُ

واستهل أبو فراس بعضَ روميّاته في الأسر بالنسيب ، وأشار فيها إلى حب الديار والربوع التي كانت مراحاً وملعباً للمحبوبة فقال [1] :

أبيت كأني للصبـابَةِ صاحبٌ وللنوم مذْ بانَ الخَليطُ مجانِبُ
وما هـذه في الحبّ أوَّلُ مرَّةٍ أساءتْ إلى قلبي الظنونُ الكواذبُ
عليّ لرَبْعِ العـامريّةِ وقفَـةٌ يملّي عليَّ الشوقُ والدمعُ كاتِبُ
فلا وأبي العُشّاق مـا أنا عاشقٌ إذا هي لم تلعَبْ بصبري الملاعِبُ

ونلحظ أن أبا فراس استهل قصيدته بغزل يلائم الحالة التي يعيشها والتي يظللها الحزن فهو يشكو الفراق ورحيل الأحبّة وبعدهم عنه وذلك بأسلوب رقيق سهل بعيد عن غريب اللفظ والمعنى .

والسري الرفّاء من الشعراء الذين اتّبعوا الأقدمين وذكروا الغزل والنسيب في مطلع قصائدهم . ومن ذلك قوله في مطلع قصيدة مدح بها سيف الدولة وذكر بعض وقائعه [2] :

أجانِبَها حَذاراً لا اجْتِنابا وأعْتَبُ كي تنازعني العتابا
وأبعَدُ خيفَةَ الواشينَ عَنْها لكي ازداد في الحبّ اقترابا
وتأبى عَبرَتي إلاّ انسكابا وتأبى لوعَتي إلاّ التهابا
مرَرْنـا بالعقيقِ فكم عقيقٍ ترَقْرَقَ في محاجرنا فذابا

ولعل الشاعر قد كشف عن مذهبه الشعري في وضوح من حيث انتقاء الألفاظ واللفظ الموسيقي والمعنى الرقيق .

---

(١) الديوان (٢ / ٣٠) .
(٢) ديوان السري (١٤) .

وقال السري أيضاً [1] :

كَمِلنَ فأطْلَعْنَ البدور كواملاً ومِلْنَ فأبدَينَ الغُصونَ موائلا
غدَونَ لنا بالوصل إنْساً نَواضِراً وكنّ من الهجرانِ وحْشاً خواذلا
يُحَرّكْنَ أعطافَ العليلِ صبابة إذا حرّكتْ أعطافُهُنّ الغلائلا
وسلت ظُبا أسيافها مُقَلُ الظبا فلستَ ترى إلاّ قَتيلاً وقاتلا

وشحن الشاعر أبياته بالتشبيهات الكثيرة التي اشتهر بها كما أنه اهتم بالصناعة اللفظية التي كانت مذهباً سائداً بين الشعراء مازجاً بين الصناعة والخيال .

وقد استهلّ الصنوبري أغلب قصائد المدح بالنسيب والغزل التقليدي ومثال ذلك قوله في مطلع قصيدة مدح بها سيف الدولة [2] :

ما للّوائمِ في العراصِ وما لنا عاصَوْا بنا لَوْمَ اللّوائمِ عاصُوا [3]
لِمَ في عِراصِ الغانياتِ يلُمْنَنا وقلوبُنا للغانياتِ عِراصُ
من كلّ خالصة الجَمالِ استأسرتْ منّا نفوساً ما لهنّ خَلاصُ
جَرَحتْ لحاظي وجْنتيها مثلَ ما جرحت فؤادي ، والجروحُ قصاصُ

كما أنه بدأ بعض قصائد الفخر بالغزل والنسيب . فقال في قصيدة يفتخر فيها [4] :

أجرَتْ على مجرى الخَلوقِ خَلوقاً وأتَتْكَ تَلطمُ بالشّقيق شَقيقا

---

(١) المصدر نفسه (٢١٥) .
(٢) ديوان الصنوبري (٢٣٤) .
(٣) اعتاص : صعب ولم يتيسر .
(٤) ديوان الصنوبري (٤٠٣) .

لما أريقَ الدمعُ في وجناتهـــا أيقنتُ أنَّ دَمي هنـــاكَ أُريقا
قالتْ أتُشْفِقُ من بكائي ثمّ لا تُلقي عليَّ منَ الفُراقِ شَقيقا
لا تَسقَمي حَزَناً لعلَّ الدَّهْرَ أنْ يصفو فيجمعَ شائقاً ومَشوقا

ومنهجُ الصنوبري في الغزل – كما يتضح من أبياته – التلاعب بالألفاظ والصور في حبكة وفنّ وحِذق ، ولا شك أن اختيار الألفاظ ووصفها كان من الميزات الّتي اتّسَم بها شعر الصنوبري .

وسلك الوأواء الدمشقي مسلك بعض شعراء عصره فنهج نهج الأقدمين واستهل بعض مطالع قصائد المدح بالغزَل ومن ذلك قوله [1] :

بَدْرُ ليلٍ أولاً فشمسُ نهـــارٍ طلَعَتْ من سحائبِ الأزرارِ
فوقَ غصنٍ تميلُهُ نشَواتُ الدَّ لّ سُكْراً من غير شرْبِ عُقارِ
يفْعَلُ الرّيقُ منهُ مـــا تَفْعَلُ الخَمْرُ ولكن بلا تأذّي خِمـــارِ
رشأ كلّما سَرى اللحْظُ فيـــهِ جرحَتْه خنـــاجرُ الأبْصارِ
كُلّما كرّ ناظِرٌ فيـــهِ أبْدى لُؤلُؤاً مُطْبِقاً على جُلّنارِ

فالشاعر الوأواء يتغزل بجمال محبوبته الفتان ، فهي كالبدر لا بل كالشمس وريقها يبعث النشوة في النفس كما تبعثها الخمرة ودون ضررها . وهي ناعمة يجرحها اللمس وعيونها تقوم مقام المِبْضَعِ .

والغزلُ الحسي بنوعيه الفاحش وغير الفاحش كان أكثر اتجاهات الغزل شيوعاً وكمّاً .

أما النوع الأول فالمقصود به ذلك الغزل الذي يرتبط بالنوازع الحسية

---

(١) ديوان الوأواء الدمشقي – مخطوط في دار الكتب المصرية (٤٤٣) .

المادية فحسب ويشعر الإنسان بنهم صاحبه . أما الغزل الحسي غير الفاحش فمداره شعور الحب نفسه وتأثيره في نفس المحب ومدى ارتباطه واندماجه معه . وموقف الحبيبة من صاحبها في الصد والوصال إلى ما سوى ذلك من النواحي المعنوية التي لا تتعرض لمواضع حسية في المحبوبة [1] .

والمرأة العربية الحرة لم تعد موضوعاً لهذا الغزل في ذلك العصر إلاّ في القليل النادر وذلك لكثرة الإماء والجواري والقيان وغزوهنّ المجتمع غزواً كبيراً فقد كثرن على اختلافهنّ منذ أن اتصل العرب بغيرهم من الأمم ، أما بالنسبة لحلب فقد أدت حروب سيف الدولة مع الروم إلى زيادة الجواري الروميات في الشام في عصر الحمدانيين وكان لذلك أثره في انتشار الخلاعة والمجون والتغزل بالجواري .

وأغلب الظن أن حروب سيف الدولة مع الروم قد شغلت حلب إلى حد كبير عن الإفراط في هذه الملاهي التي أفرطت فيها بغداد إلى حد عظيم ويقول الثعالبي : « وكان سيف الدولة قلما ينشط لمجلس الأنس لاشتغاله عنه بتدبير الجيوش وملابسة الخطوب وممارسة الحروب » [2] .

وينبغي أن نذكر أن المرأة التي هي مدار شعر الغزل في القرن الرابع الهجري كانت أمة إمّا فارسية أو رومية أو هندية أو غير ذلك من أجناس أولئك الإماء المنتشرات في أرجاء العالم الإسلامي . وهي تخالطُ الرجال وتجلس إليهم وتغدو وتروح في غير تحرج .

ولقد وصف كشاجم حياةَ القِيان من غناء ولهو ورقص وعبث فقال [3]:

---

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري - الدكتور محمد مصطفى هداره (٥٠٣) .
(٢) الامتاع والمؤانسة (١ / ١٥١) .
(٣) ديوان كشاجم المخطوط (١٣) .

ومنزلُ قَينـــةٍ سهلِ الجنابِ تضمّن كلَّ آنسةٍ كعابِ
غَذَتْها نعمةٌ ولذيذُ عيشٍ فأنبتَ صدرُها ثمرَ الشّبابِ
فمِنْ عوّادةٍ تشدوُ وأخرى بمِعْزَفَةٍ وأُخْرى بالرّبابِ
ومُحْسِنَةٍ مُوقّعَةٍ بطَبْلٍ كصوتِ الرّعد من خللِ السحابِ
وشافعَـــةٍ صواحبها بنـــايٍ أحنَّ من الخليع إلى التصابي
وراقصَةٍ على كُرَةٍ وحبْلٍ كخطف البرق أو لمْع السّرابِ

ويبدو أن الشاعر زار منزل قينة قد اجتمع إليها كل آنسة كعاب فوصف العُودَ ورسم مجموعة الآلات الموسيقية معاً فهناك عَوّادةٌ تشدو وأخرى لها مِعْزَفَة ، وثالثة لها ربابٌ ورابعة محسنة توقع بطبْلٍ كصوت الرعد من خلَلِ السحاب .

ويستطرد الشاعر فيصف مجونه وعبثه في بيت القِيان[1] :

رَكِبْتُ به مطايا اللّهو حتى حطَطْتُ به مطلّحَةً ركابي
فما بَقِيْتْ به عـــذراءُ إلاّ صَبَتْ نحوي وهام فؤادها بي
أُواصِلُ هذهِ فتغارُ هذي وتعْتِبُ أو تَعَرَّض للعتابِ
وأخرى بيننا بالكُتبِ تسعى مُكاتمةً وتَرجعُ بالجوابِ
فما إنْ رمَتْهُ حتى تَوَلّى بذاتِ يدي وأودى باكتسابي

وقال كشاجم يصف غناء مغنية شغلتْ عقول السامعين بحسن صوتها[2] :

ولها من الأوتارِ حينَ تجُسّها أذنٌ على حجُبِ القلوب لطيفُ

---

(١) المصدر والمكان نفساهما .
(٢) اليتيمة : ط ١٩٣٤ (٢ / ٣١) .

شغلَتْ عقولَ السامعينَ فكلّهم مُصغٍ إلى نغَماتها مصروفُ
ترِدُ الجوانحَ والعقول شواخصٌ فيها فتقعدُ والقلوبُ وقُوفُ

وكشاجم يصف العود والقينة والغناء على ألوان كثيرة ، وفي قصائد عديدة وهذا يدل على أنه كان منغمساً في حياة الغناء والعشق والطرب ، يقضي وقته منصرفاً إليهما في شغف ولذة .

ويرسم كشاجم العازفة وهي تضرب بيمناها وتطوّق العُود بيسراها ، فتتحدث إليه ويتحدث إليها ويشتبكان في نغم جميل وغناء عذب فيقول :

ومُسْمِعَةٍ تَحْنُو على مُتَرَنِّمٍ له زَجَلٌ عالٍ وليس له سحْرُ
إذا طرَّقْتُهُ بالأنامِلِ والتَقَى على جسمه من جسمِها الصدرُ والنحرُ
بكى طرباً فاستضحكَ اللّهوُ نحوهُ وفُضَّتْ عُرا الألباب واستلب الصّدر

وقال أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي يصف قينة فاتنة الجمال تحن على عودها [1] :

وبنتِ خِدْرٍ تُرِيكَ صورتها بدْرَ الدّجى في ردائها العَطِرِ
حنّتْ على عُودها وقد بُزِلتْ مُدامُنا جَمْـرَةً بلا ضرَرِ
يا تاركاً طِيبَ يومهِ لِغَـدٍ تبيعُ عينَ السرورِ بالأثَرِ
إنْ وتَرَتْ قلبكَ الهموم فما مثلُ انتصارٍ بالنّاي والوَتَرِ

ولقد طرق كثير من شعراء سيف الدولة الغزل الحسي الماجن وكان للجواري والأديرة التي كان يطرقها الشعراء للهو والعبث والمتعة في مجالسها

---

(١) ديوان الخالديين (٦٠) .

أثر في منهجهم الأدبي . هذا بالإضافة إلى تأثرهم بالتراث الشعري الماجن في العصر العباسي الأول .

ومن شعراء الغزل الذين سَلَسَ غزلهم وجاشت عواطفهم الوأواء الدمشقي الذي يعد إمام الغزليين في بلاط سيف الدولة وكان بارعاً في تصوير تباريح العشق واللوعة .

ولقد اهتم في غزله بالزخارف اللفظية من تشبيهات واستعارات وغلب على شعره الرقة والسلاسة والعذوبة . وديوانه أغلبه غزلٌ لأنه كان حياته كلها فيما نعتقد . وأغلبه مقطوعات قصيرة تتراوح بين ثلاثة وستة أبيات وهو يعلن في شعره الحب الفاجر والعفيف وهو في الحالتين عبد طائع للمحبوب ذليل شقي في عشقه وحبه . ومن جميل غزله قوله [1] :

وزائرٍ راعَ قلْبَ الناسِ منظرُهُ ... أحلى من الأمنِ عندَ الخائفِ الوجلِ
ألقى على الليل ليلاً من ذوائبِه ... فهابه الصّبْحُ أن يبدو من الخجَلِ
أرادَ بالهجرِ قَتْلي فاستجرْتُ به ... فاستلَّ بالوصل روحي من يديْ أجلي
وصرتُ فيهِ أميرَ العاشقينَ فقَدْ ... صارتْ إمارةَ أهل العشقِ من قِبَلي

ومن غزله الجميل الذي يفيض رقة وعذوبة قوله :

قالتْ وقد فَتَكَتْ فينا لواحظها ... لِمْ ذا ؟ أما لقتيل الحبّ من قَوَدِ ؟
وأسبلَتْ لؤلؤاً من نرجس وسقَتْ ... وَرْداً وعضَّتْ على العُنّابِ بالبرَدِ
إنسانَةٌ لو بدتْ للشمس ما طلعَتْ ... من بعدِ رؤيتها يوماً على أحَدِ

وإلى جوار الغزل الحسّي الماجن وجِد غزلٌ عفيف يميل إلى العفة ويبتعد

---

(١) ديوان الوأواء (١٠٣) .

عن الإغراق في العبث واللهو والمجون ، ولعل معاني الفروسية التي كانت تسودُ في مجتمع الأمير كان لها أثر في هذا اللون من الشعر كالذي يجده الباحث في غزل أبي فراس فغزله فيه اتجاه حسي ولكنه لا يتّسم بالفحش والخلاعة .

تغزل أبو فراس بالمرأة ووصف مفاتنها وشبّهها بصور محسوسة استمد بعضها من أسلافه الشعراء واستمد بعضها الآخر من واقع مجتمعه وبيئته وعصره فهو يعجب بالمقل النجلاوات التي تشبه عيون الظّباء وسهامها كظُبا الصوارم القاطعة وأنه ليقول [1] :

كيفَ اتقاءُ لحاظهِ وعيونُنا طُرُقٌ لأسهمها إلى الأحشاءِ
كيف اتقاءُ جآذر يرمينَنا بظُبا الصوارمِ من عيون ظباءِ
يا ربّ تلك المقلة النجلاء حاشاكَ مما ضُمّنت أحشائي

ومحبوبته ظبي نافر وقمر دون حسنه الأقمار [2] .

قَمَرٌ دُونَ حُسْنهِ الأقمارُ وقضيبٌ من النقا مستعارُ
وغزالٌ فيهِ نفارٌ ولا بُدْ عَ فمن شيمةِ الظِّباء النّفارُ
قد حذرْتُ المِلاح دهْراً ولكنْ ساقني نحو حُبّه المِقْدارُ

ويوازن أبو فراس بين الحبيبة التي تبتعد عن الوفاء وتنسى الحبيب وبين الحبيب الذي يفي بعهده ويهب نفسه للمحبوبة [3] فيقول :

أنَسِيتَ ذِكْرُ أحبّـــةٍ ينسَوْنَ ذِكْراً غيرَ ذكركْ
وصبرتَ عنـدَ فِراقِهم ما كان عُذرَكَ عند صبركْ

---

(١) الديوان (٢ / ٧ ــ ٨) .
(٢) الديوان (٢ / ١٩٤) .
(٣) الديوان (٢ / ٢٧١) .

ووفَوْا بعهدكَ في الهَـوى فجزَيْتهُمْ ظُلْماً بهَجْرَكْ
وعَصَيْتَهُـمْ ولطـالما كانوا خلافَكَ طوعَ أمرِكْ

والملاحظ على غزل أبي فراس كثرة المقطوعات وتأثره فيه بفروسيته فمزج بين الغزل والفروسية ومثال ذلك قوله [1] :

لم أنْسَ قولتَهنَّ يومَ لقينَني أزرى السّنان بوجه هذا البائسِ
قالتْ لهنّ ، وأنكرتْ ما قُلنه أجميعكنَّ على هواهُ منافسي ؟
اني ليُعجبني ، إذا عـاينتُه أثَرُ السّنانِ بصحن خدّ الفارس

ومن الشعراء الذين طرقوا الغزل العفيف أبو الطيب المتنبي وغزله تغلب عليه الصنعة ولا صلة بينه وبين العاطفة ومن المتفق عليه أنه ضعيف المعاني الخيالية قصير النّفَس في غزله [2] :

وصرف المتنبي حبه الحق إلى السيوف والقَنا وتمجيد البطولة فقال :

تقولينَ ما في النّاسِ مثلكَ عاشقٌ جدي مثل مَن أحببته تجدي مثْلي
محِبٌّ كَنى بالبيضِ عن مُرهَفاته وبالحسن في أجسامهنّ عن الصَّقْلِ
وبالسّحرِ من حُمرِ القَنا غيرَ أنّني جناها أحِبّائي وأطرافِها رُسلي

فغزل المتنبي لا ينسيه الكلف بالحرب وذكرها فهو يصف منعة الحبيب وما يحيط به من شدائد وأهوال فيقول :

دِيارَ اللّواتي دارهُنَّ عَزِيـزَةٌ بطولِ القَنا يحفظنَ لا بالتمائمِ

---

(١) الديوان (١ / ١٧٤) .
(٢) ابو تمام والبحتري والمتنبي بين حقائق الحكمة وخيالات الشعر ـ الدكتور عبد السلام سرحان (٥١٣) .

فالمتنبي ليس في طبعه ونزوعه من أهل الغزل ولكنه حينما أراد أن يتغزل تأسياً بالشعراء استطاع أن يجيد [1] . وظهر في غزله الاتجاه الشعري الذي عرف به من الاحتفال بالمعـــاني والمبالغات والتعمق في الألفاظ اللغوية ولكنه أبان عن مقدرة تامة وبراعة مدهشة وإحاطة غريبة بالمعاني الغزلية . ومن جيد ذلك قوله [2] :

قَبَّلْتُها ودموعي مزج أدْمُعِها ... وقَبَّلْتَني على خوفٍ فمأً لِفَمِ
فذُقْتُ ماءَ حياةٍ من مُقَبَّلَها ... لو صاب ترْباً لأحيا سالفَ الأممِ
تَرْنُو إليَّ بعينِ الظَّبْيِ مجْهِشَةً ... وتمسَحُ الطلَّ فوقَ الوردِ بالعنمِ [3]
رويد حكمكِ فينا غيْرَ مُنصِفَةٍ ... بالنّاسِ كلهم أفديكِ من حكمِ

وذوق المتنبي في الجمال ذوق بدوي ، فهو يكره الحضريات ذوات الجمال المكتسب بالمساحيق ويحب البدويات البعيدات عن كل تصنع :

فنشرتَ ثلاثَ ذوائبٍ من شعرها ... في ليلَةٍ فأرَتْ ليـــالي أربعا
واستَقْبَلَتْ قَمَرَ السّماء بوجهها ... فأرَتْنيَ القَمَرين في وقتٍ معا

وكقوله :

لَبِسْنَ الوَشْيَ لا متجَمّلاتٍ ... ولكنْ كي يَصُنّ به الجَمالا
وضَفَّرْنَ الغَدائرَ لا لحسْنٍ ... ولكن خِفْنَ في الشَّعْرِ الضَّلالا

وظهر اتجاه الحكمة في غزل المتنبي وحلل الحب وبين غايته ومداه بأسلوب منطقي :

---

(١) ذكرى أبي الطيب : عبد الوهاب عزام (٣٣٢) .
(٢) ديوان المتنبي : شرح البرقوقي (٤ / ١٥٤) .
(٣) العنم : قيل هو ضرب من الشجر له نور احمر تشبه بـه الاصابـع المخضوبة .

إنَّ القَتيلَ مضَرَّجاً بدموعِـــهِ مثْلُ القَتيلِ مضرَّجاً بدمائِهِ
والعشْقُ كالمعشوقِ يعْذُبُ قرْبُه للمبْتلي وينالَ مِنْ حَوبائِهِ

ومن شعراء الغزل العفيف الشاعر أبو الفرج الببغاء ومن شعره في هذا اللون قوله يفدّي محبوبته بروحه [1] :

يا سادَتي هذه روحي تودّعُكم إذ كان لا الصَّبرُ يُسليها ولا الجزَعُ
قد كنتُ أطْمَعُ في روحي الحياةَ لها والآن إذ بِنْتُمُ لم يبقَ لي طَمَعُ
لا عَذَّبَ اللهُ روحي بالبقاءِ فما أظُنُّها بعدكم بالعيشِ تنتفعُ

ويتحدث الببغاء عن حبّه العفيف الشريف فيقول :

جاورتُ بالحبّ قلْباً لم تذُرْ فِكَري للحُبِّ مستمتعاً فيهِ ولم تدَعِ
يَصْبو ولكن يكُفّ الحِلمُ صَبْوَته وأشْرَفُ الحبّ أثناهُ منَ الورَعِ
وبي أمسّ غَرامٍ لو أنِسْتُ إلى الشـ كوى ولكن أُعِدّ الصّبرَ للجزَعِ

وللوأواء غزل عفيف بديع امتاز بسلاسة اللفظ ورقة المعنى وقوة العاطفة . ومن ذلك قوله في صد المحبوبة وهجرها [2] :

يا مَنْ رضاهُ حياتي في تَعَتُّبِهِ ومَن مماتي جَفاهُ في تَغَضُّبِهِ
هجرتني ظالماً مِنْ غيرَ ما سَبَبٍ ففاضَ دُمْعُ عُذولي من تعَجّبِهِ
ما خانَكَ الطّرْفُ منّي قَطّ في نظرٍ ولا سَلا عنكَ قَلْبي في تقَلّبِهِ
وأنتَ واللهِ يا سُؤْلي ويا أمَلي أعزّ في مُهجتي ممّا أراكَ بهِ

ويبالغ الوأواء في وصف نباريح الشوق والمحبة حتى إن جسمه لا يبينُ

---

(١) شذرات الذهب ، ج ٣ (١٥٢) .
(٢) ديوان الواواء المخطوط (٢٥ ــ ٢٦) .

للناظرينَ من السّقْم والهُزال الذي اعتراه من شدة الحب والوجد [1] فيقول :

أَلِفَ السّقْمُ جسْمَهُ والحَنِينُ وبَراهُ الهَوى فلَيْسَ يَبِينُ
قدْ سَمِعْنا أَنِينَهُ مِنْ قَريبٍ فاطْلُبُوا الجسْمَ حيثُ كان الأَنينُ

وطرق بعض الشعراء الحمدانيين مجال الغزل بالمذكر . ولم يعرف عن شعراء العرب الميل إلى هذا اللون من الشعر قبل القرن الثاني الهجري وكل الدلائل تشير إلى شيوع هذه العادة السيئة وانتشارها في العصر العباسي منذ منتصف القرن الثاني للهجرة عن طريق الفرس وفي القرن الرابع الهجري شاعت تلك العادة لدى شعراء العراق ومنها انتقلت إلى بلاد الشام في عصر سيف الدولة وهناك عوامل عدة ساعدت على انتشار هذه الروح في عصر سيف الدولة .

أولاً : وفرة الجواري في هذا العصر وشيوع التهتك والخلاعة والمجون بينهن مما أدى للأسف إلى وجود تيار ماجن شجع بعض الشعراء على الإيغال في المجون والعبث وطرق مجال الغزل الفاحش بالمؤنث والمذكر .

ثانياً : شيوع مجالس الخمرة ووصف مجالسها والتي كان سقاتها من فتيان الروم والفرس وكانوا على جانب من الملاحة والخلاعة مما دفع بعض الشعراء إلى التغزل بأولئك السقاة .

ثالثاً : كثرة الرقيق من الغلمان من مختلف الأجناس الذين كانوا على حظ وافر من الجمـــال وكان منهم من يعمل في خمارات الأديرة ومنهم من كان يخدُم في قصور الأغنياء والموسرين ومنهم من عمل في خدمة الشعراء في مجالسهم وبيوتهم ينادمونهم ويقومون بقضاء حوائجهم .

---

(١) ديوان الواواء المخطوط (٢٩) .

ولم ينقطع شعراء الغزل في المذكر انقطاعاً تاماً إليه ، إنما طرقوه كما طرقوا الغزل في المؤنث ومن الشعراء الذين أكثروا القول في المذكر أبو بكر الصنوبري ، الذي كان شاعراً رقيق الحس عذب اللفظ بارع الخيال والتصوير ومن قوله في وصف حبه لغلام اسمه جعفر [1] :

أأُطيلُ في وصفِ الهوى أم أُقْصِرُ وأذيعُ مكْتومَ الأسى أم أستُرُ
يا جعفَرُ العالي على بدْرِ الدُّجَى بكَ نالَ بهجَةَ وجههِ يا جعفرُ
تمّتْ خلالُ الحُسْنِ فيكَ فكلُّها تُثْني عليك إذا تَعُدّ الحنصرُ

والجدير بالذكر أن تيار الشعر الماجن في بيئة حلب كان تياراً محدوداً لأن السمة الغالبة على تلك البيئة آنذاك هي سمة الجد والاستقامة والارتباط بالقيم والمثل والتصدي للخطر الرومي .

ومجمل القول أن شعراء الغزل اهتموا باللفظ الرشيق والتعبير الرقيق والمعنى الدقيق والحركة والموسيقى الراقصة وأبدوا اهتماماً بتأوّد الأعطاف وتثني القُدود الممشوقة وجددوا في الأوصاف الجسمية وأسبغوا عليها من أصباغ الحضارة وأضواء الثقافة عناصر طريفة إلاّ أن غزلهم خال من العاطفة الصادقة والأحاسيس الجياشة ومنبع العاطفة عندهم في الأغلب هو العقل لا القلب ، وقد كثرت التشبيهات والمحسنات اللفظية والمبالغة في قصائدهم مما أضعف من قوة العاطفة وفيض الشعور .

ومزج بعض شعراء هذا الفن كأبي فراس والمتنبي بين الغزل والفروسية والحماسة الحربية .

---

(١) ديوان الصنوبري (٦٥ ـ ٦٦) .

الخمر

وجد فن الشعر الخمري في الأدب العربي منذ العصر الجاهلي إذ أن الشعراء أُغرِموا بوصفها لما تضفيه على نفوسهم من متعة وسرور ولما تبعثه في قلوبهم من نشوة وحُبور فهم يغرقون بها آلامهم وهمومهم ويطمسون فيها أحزانهم وأتراحهم .

ولقد كان شعر الخمريات منتشراً في الشعر الجاهلي في أبيات قليلة لم يقصد فيها أصحابها إلى وصف الخمر ، ولكنهم ذكروها لبعض المناسبات ومروا بها مروراً سريعاً فقالوا إنها حساء وإن ريحها طيبة فواحة كالمسك وإنها معتّقة ، وشبّهوا بها رُضاب صواحبهم ووصفوا الساقي الذي يحملها في بعض الأحيان [1] :

كذلك تحدثوا في أبيات قليلة عن آثر الخمر في نفوسهم ، وعرضوا لآنية الشراب فلم يزيدوا على وصف الأدوات بأنها مقيدة ووصفوا الإبريق بأنه من الفضة فحسب . وكذلك وصفوا الخمر بالصفاء وبأنها كالدم أو كدم الغزال بالذات [2] . ويضيف أحد الباحثين أننا نقع في إحدى القصائد الجاهلية على وصف شعاع الخمرة وفي سواها على وصف تأثيرها ، كما نعثر في قصائد

---

(١) أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة بين الاعشى والجاهليين : محمد محمد حسين (٧) .
(٢) تطور الخمريات في الشعر العربي : الدكتور جميل سعيد (٣٤) .

أخرى على وصف مجلسها وآنيتها ، دون أن تجتمع هذه المعاني في قصيدة واحدة ، موصولة كما سنشهد في العصر العباسي [1] .

والخمر في صورة عامة عند الشعراء الجاهليين لا يختلف وصفها بين شاعر وآخر والأوصاف الجاهلية للخمر لا تخرج عن تشبيه المحسوس بالمحسوس وتعد أغلب هذه الأوصاف أولية ساذجة إذا قيست بما بلغه الفن الخمري في العصر العباسي .

وفي القرن الأول لم يطرأ تغيير كبير على شعر الخمرة ، وأبرز الشعراء الذين اهتموا بها في ذلك القرن هو الأخطل الذي قلّد الجاهليين وكان شعره الخمري على الأغلب مثبتاً في قصائد المدح كما كان الأمر في الشعر الجاهلي . وعلى الرغم من أنه أدمن الخمر ، فإنه لم يعرض لها بقصيدة مستقلة ، إلاّ في فلتات نادرة ، والذي أنجاه من العقوبة على القول فيها هو مناصرته للأمويين ومدحه البالغ لعبد الملك بن مروان .

أما في القرن الثاني فلقد تبدل الشعر الخمري تبدلاً كبيراً في الشكل والمحتوى على السواء فتخصص بعض الشعراء المتحللين في هذا الفن وكادوا أن يقصروا عليه حياتهم وشعرهم واتخذوا من القصيدة الخمرية مجالاً للتعبير عن عواطفهم وأحاسيسهم نحو أم الكبائر ، وظهرت اتجاهات جديدة في شعر الخمرة لم تكن موجودة من قبل . ولعل أبا نواس يعد رائد هؤلاء الشعراء الماجنين الفاسقين في عصره . فقد وقف حياته أو كاد على وصف الخمر والتغني بها فهي مذهبه الشعري وما عداها من أغراض خاض فيها اضطراراً لكسب العيش أو شفاء لما في نفسه من حب وشوق أو لغير ذلك من أسباب طارئة أو ثابتة .

---

(١) فن الشعر الخمري وتطوره عند العرب : ايليا حاوي (١٥) .

ولقد أصبح القول في الخمر مذهباً لأبي نواس يصبه في قوالب صناعية متقنة وتشبيهات رائعة ومعان مبتكرة ويكاد شعره يكون معجماً للخمريات يضم أشتات أسمائها وأدواتها وأوقات مزاولتها ويتحدث عن الساقي والساقية والنديم فيها والمغني لها وغير هذا وذاك من مستلزماتها .

وقد سار شعراء الخمر على نهج أبي نواس فردّدوا معانيه وعرضوها في صيغ متجددة وأساليب متعددة ومعان مبتكرة . وأفكار مفترعة لم يدركها أحد من السابقين .

وفي عصر سيف الدولة أكثر الشعراء من التغني بها وتسابقوا إلى وصفها وذكر مجالسها فأتوا بالطريف المبتكر والبديع الحسن والجديد المستحدث الجميل الرواء .

ولعل من أشهر شعراء الخمرة في رحاب سيف الدولة الخالديين والسريُّ الرفاء والوأواء الدمشقيّ والخليع الشاميّ وأبا الفرج الببغاء وكشاجم والصنوبريّ، الذين تأثروا جميعاً بأبي نواس فساروا على نهجه وثاروا على الأطلال التي عَفَتْ صورها وزالت معالمها واندرست رسومها .

فهذا أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي يقول [1] :

لا وجُفُونٍ تنُوسُ في العُقَدِ ... وحسْنِ ثغرٍ يلوحُ كالبرَدِ [2]
لا كنتُ ممّن يُضيعُ أدمعَهُ ... بينَ الأثافي والنّوي والوَتَدِ
أحسَنُ من وقْفَةٍ على طلَلٍ ... قَفْرٍ وزَجْرِ العيرانةِ الأجُدِ [3]

---

(١) ديوان الخالديين (٥٠) .
(٢) ناس الشيء نوسا ونوسانا : تذبذب متدليا وتحرك .
(٣) العيرانة من الابل : التي تشبه بالعير في سرعتها ونشاطها . وقيل الناجية في نشاط . وناقة أجد : قوية موثقة الخلق ، ولا يقال للبعير أجد .

كأسُ مُدامٍ جَلا المُديرُ بها أمَّ الليالي وجِـدَّةِ الأبَدِ

فأنت ترى أن الشاعر يعرّض بمن يذرِفُ دموعه على الأطلال ولا يقبلُ أن يقفَ عليها ويفضل على ذلك كأس الخمْر التي تبعث النشوةَ والمسرّة والتي هي أمّ الليالي .

وقال كُشاجم يدعو إلى عدم الوقوف على الأطلال ويشجبُ البكاءَ على النّؤي والطنُبِ ووصْفَ الجِمالِ فأبهى من ذلك وأجمَلُ معاقرةُ بنت الحانِ والكرمة [1] .

لا تُطنبنْ في بكاء النّؤي والطُّنُبِ ولا تحيِّي كثيبَ الحيّ من كثبِ [2]
ولا تَجُدْ بغَمـــامٍ للغَميمِ ولا تسمحْ لسرْبِ المَها بالواكفِ السربِ [3]
رَبْعٌ تَعفى فأعفى من جوَى وأسى قَلبي وكان إلى اللّذّات مُنقلبي
سِيّانَ بانَ خَليطٌ أو أقامَ بـــه فإنما عامرُ البَيْداء كالخَرِبَ
أبهى وأجملُ من وصفِ الجِمال ومن إدمانِ ذكْرِ هوًى يُهوي على قتبِ [4]
مَدُّ البَنانِ إلى كأسٍ على سَكَرٍ ورفعُ صوتٍ بتطريبٍ على طَرَبِ

ويصرح الصنوبري انه ليس من مذهبه الوقوفُ على الأطلال ووصف ركوب الإبل إلى الممدوح والسّرى قاطعاً المهامه فيقول [5] :

---

(١) ديوان كشاجم المخطوط (١٢) ، ونسبت هذه القصيدة الى ابي بكر الخالدي .
(٢) الطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت او الوتد ، جمعها أطناب وطنبة .
(٣) الغميم : لبن يسخن حتى يغلظ . سرب المها : القطيع من الظباء والنساء وغيرها . والسرب : الماء السائل ، ويقصد به هنا الدمع ، ووكف الدمع سال قليلا قليلا .
(٤) القتب : قيل هو أكاف صغير على قدر سنام البعير .
(٥) ديوان الصنوبري (٧٩) .

لم أُعَرِّجْ على طُول بتيما ءَ ولم أسرِ في الدّجى بالعيرِ
إنما عيرُنا الكؤوسُ نَراهـا سائراتٍ تُحدى بناءِ وزيرِ[1]

ويدعو الصنوبري أيضاً إلى عدم البكاء على الأطلال والدّمن وينادي باصطباح الصّهباء الصافية التي تبعث النشوة والسعادة في النفس وتذهب بالحزن والألم فيقول[2] :

لا تبكِيَنَّ على الأطلالِ والدِّمَنِ ولا على منزلٍ أقوى منَ الزَّمَنِ
وقُمْ بنا نصطبحْ صهباءَ صافيةً تنفي الهمومَ ولا تُبقي من الحَزَنِ
بِكْراً معتّقَةً عذراء واضحةً تبدو فتخبرُنا عن سالفِ الزَّمنِ

وقال الصنوبري أيضاً[3] :

لا تَبْكِ ربعاً عفا ولا طَلَلا ولا تصِفْ ناقةً ولا جمَلا
وعاطني قَهوةً إذا مُزِجَتْ أرَتْكَ منها في كأسها شُعَلا

ويصرح السري الرفاء شاعر الخمر الرقيق الإحساس بإعجابه بأبي نواس فيقول[4] :

ألا عُدْ لي بباطيَةٍ وكاسٍ وُرْعِ همّي بإبريقٍ وطاسِ
وذكّرْني بشعْرِ أبي نواسٍ على روض كشعر أبي نواسِ

وقال أيضاً معبّراً عن إعجابه بأبي نواس[5] :

---

(١) الناء : الناي . الزير : من اوتار العود .
(٢) ديوان الصنوبري (٤٩٦) .
(٣) ديوان الصنوبري (٤٨٥) .
(٤) ديوان السري (١٥٢) .
(٥) ديوان السري (١٤٩) .

سأترُكُ مَن أهوى بما هو أهْلهُ ولو كان من أهوى يُشاكله البدرُ
وأصْبو إلى قول الذي قد عرفْتُما (ألا فاسقني خمْراً وقل لي هي الخمرُ)

ولقد فُتِنَ شعراء عهد سيف الدولة بالخمر وأكثروا من ذكرها في أشعارهم فوصفوها وصفاً رائعاً وذكروا أسماءها ووصفوا مجالسها وآلات تقديمها وأدوات شربها فتحدّثوا عن الزّقّ والدّنّ والكأس والإبريق ووصفوا حَبابَ الكؤوس والساقي والساقية والنديم . كما ذكروا أماكن شربها فتحدثوا عن الحانات التي في الأديرة وسواها .

ولقد عالج كثير من شعراء الأمير الحمداني وصف الخمرة وأدوات شربها وتفننوا في ذلك وممن طرقوا هذا الباب وبرَعوا فيه الوأواء الدمشقي — الذي يعد من أرق الشعراء الحمدانيين شعراً — ومن قوله يصف الخمر ويشبّه لونها الأصفر بلون العاشق المدْنف شديد الحبّ والوجد [1] :

وهَيْفاءَ من نُدَماءِ الملوكِ صفراءَ كالعاشِقِ المدنفِ
تكيدُ الظلامَ إذا كادَها فتفْنى وتُفنيهِ في موقِفِ

ويعشق الوأواء الخمرة عشقاً بالغاً — ويفنى في حبها ويخاطب غلامه أن يسارع بها إليه قبل أن يدركه الموت فيقول :

قُمْ يا غُلامُ إلى المُدامِ قُمْ داوني منها بجامِ
فالصبْحُ ينتهِبُ الدُّجى والبدرُ يضحكُ في الظّلامِ
قُمْ فاسْقِني بَرْقَ الثّغُو رِ فقد مضى بَرْقُ الغَمامِ
بادِرْ إلى صِرْفِ الحميّا سابقاً صَرْفَ الحِمَامِ

---

(١) ديوان الواواء المخطوط (٩) .

وتَغَنَّمِ الغَفَلاتِ مِنْ دَهْرٍ يجُورُ على الكِرامِ

ووصف كشاجم عشق الخمرة وقدمها فشبّهها تشبيهات جميلة فهي كالعقيق وكالضياء الذي ينسل من الظلام [1] :

فاسقنيها حتى ترى الشمس في الغرْ ب عَلَيْهـا غِلالَـةٌ صفراءُ
قَهْوَةٌ بـابليّةٌ كدَمِ الشّـا دِنِ بِكْرٌ لكِنّهـا شَمْطاءُ
قَـد كستْها الدّهور أردية الرّقّـ ـةِ حتى جَفـا عليهـا الهَواءُ
عَجَباً ما رأيتُ من أعْجَبِ الأشـ ياءِ تَقْدِيرَ مَنْ لَـهُ الأشياءُ
سيح يستَحِيلُ منْـهُ عَقِيقٌ وظلامٌ يَنْسَلّ منهُ ضِيـاء

وكُشاجم الذي عرف بلطائفه واشتهر بها كلِفَ بالخمرة وفُتن بها ورثى قَدَحاً انكسر وتفجّع عليه وكأنه يتفجع على عزيزٍ فقَدَه أو حبيبٍ ثكله فقال وهو من بديع لطائفه [2] :

عَراني الزَّمـانُ بأحْداثِهِ فبَعْضاً أطقْتُ وبعضٌ فدَحْ
وعندي فجـائعُ للحـادثاتِ وليسَ كفَجْعَتِنا بالقَدَحْ
وعاءُ المُدامِ وتـاجُ البَنانِ ومُدْني السرورِ ومُقصي التَّرَحْ

وقد ولع أبو الفرج الببغاء بالخمر ووصفها وصفاً بارعاً فهي في الدَّنّ الأسود كالصباح المقارن للمساء فهي نار تذكي بالماء وشمس في الظلماء وشعاع ممازج للهواء [3] :

ومُدامٍ كأنهـا في حشا الدّ نّ صباحٌ مقارنٌ بمساءِ

---

(١) ديوان كشاجم المخطوط (٤) .
(٢) ديوان كشاجم المخطوط (١٢) .
(٣) اليتيمة (١ / ٢٦٢) .

فهي نفسٌ لها من الطينِ جسمٌ لم تُمتَّعْ فيهِ بطولِ البَقاءِ
ما توهمْتُ قبلَها أن في العا لَمِ ناراً تذكى بقرْعِ الماءِ

وتحدث الببغاء عن عتْق الخمرة وهو من أبرع ما قيل في هذا المجال إذ أضفى عليها من أوصاف القِدَم كلّ جديد طريف ، ورجع بها إلى الأزل قبل الشمس والنور والظلام واشتقّ اسمها من سالف الأمم [1] :

وعريقَةِ الأنْسابِ والشِّيَمِ موجودةٌ والخلْقُ في العَدَمِ
قَدُمَتْ فلا تُعزى إلى حدَثٍ إلاّ إذا عُزِيَتْ إلى الهَرَمِ
هي آدمُ الكرْمِ المولَّدِ في الدّ نْيا وحوّا الخمر في القِدَمِ

ويولد الببغاء المعاني الطريفة في وصفه للكأس فيصفه بالهواء وزرقة الحَدَق [2] بعد أن ذكر أنها في صفوها تشبه خلقه ، وفي عنقها تمثل كرمه :

فعاطنيها بكراً مُشَعْشَعَةً كأنها في صفائِها خُلُقي
في أرزقٍ كالهواء يخرقه الـ لحْظُ وإن كانَ غيرُ منْخَرِقِ
كأنَّ أجزاءهُ مُرَكَّبَةً حُسْناً ولطفاً من زُرقةِ الحدَقِ
ما زلتُ منه منادماً لَعِباً مُذْ أسكرتها السّقاةُ لم تُفِقِ
تختالُ قبلَ المِزاجِ في أزرق الـ فجرِ وبعدَ المِزاجِ في الشَّفَقِ

وكما وصف الببغاء الخمر وحبَب الكؤوس وصف كذلك المعصرة وصفاً دقيقاً جميلاً وتحدّث عن الخمرة وقصتها وتعجّب كيف يعيشُ العاصر وهو يخوضُ في بحرٍ من اللّهب فقال [3] :

---

(١) المصدر السابق (٢٦٢) .
(٢) اليتيمة (١ / ٢٦٣) .
(٣) المصدر نفسه (٢٦١) .

ومَعْصَرَةٍ أنَخْتُ بهَا وقَرْنُ الشمسِ لم يَغِبِ
فخِلتُ قِزازهـا بـالرّا حِ بعض معادنِ الذّهبِ (١)
وقد ذرَفَتْ لفقْدِ الكَرْ مِ فيها أعيُنُ العِنَبِ
وجاشَ عُبـابُ واديهـا بمَنْهَلٍ ومُنْسَكِبِ
وياقوتُ العَصيرِ بهـا يلاعِبُ لؤلؤ الحَبَبِ
فيـا عَجَبـاً لعاصرِهـا ومـا يُغْني بهِ عَجَبي
وكيف يَعيشُ وهْوَ يخُو ضُ في بَحْرٍ من اللّهَبِ ؟

وقد وصف السري الرفاء الخمرة وصفاً بارعاً وأكثر من التشبيهات الجميلة (٢) :

ألا فاسْقِني الخمْرَ مشمولةً تصُبُّ على الليلِ صُبحاً مُنيرا
مُوَرّدَةُ اللونِ مِسْكِينَةً تعِزّ الذّليلَ وتُغني الفَقيرا
كأنَّ العَقيقَ بكاساتهـا نفضَ السقاةُ عليها العبيرا

وشبّه السريّ لون الخمرة الأحمر بالياقوت وشبّه صورَ كسرى وقيصر التي تزين الكأس بالحَصَب التي تُسعر النار وما النار إلاّ الخمرة (٣) :

حمراءُ كالياقوتِ صافِيَةً ومعظَمُ الياقوتِ أحْمَرُهُ
فهيَ التي عصرَتْ لقـاطِفها عُنقودُها من قبلِ يعصرُهُ
في كأسِهِ كسرى يُقـابلُهُ من خلفِ سترِ الرّاحِ قيصرُهُ
فكأنّما ناراهمـا حَصَبٌ لحريقِها العـالي يُسَعِّرُهُ

---

(١) القزاز : جمع قازوزة وهي القدح والقازوزة الصغيرة .
(٢) ديوان السري نفسه (١٣٤) .
(٣) المصدر نفسه (١٢٦) .

ووصف الدّنان والكؤوس [1] :

ودنانٍ أقمنَ صفّاً كما قا ... مَ غداةَ اللّقاء رجْلٌ حروبِ
وبَواطٍ كأنهُنّ وِهادٌ ... أترعَتْها سجالُ غيثٍ سكوبِ
فكأن الكؤوس فيها جُنوحاً ... أنجُمُ اللّيل صوبت للمغيبِ [2]

ورسم صورةً بارعةً للفرسان شاكي السلاح الذين تزين صورهم الكأس [3].

وموْسُومَةٍ كأساتها بفَوارِسٍ ... من الفُرس تطفو في المُدامِ وتغرقُ
أقْبَلُ منهم كلّ شاكٍ سِلاحَه ... وفي يدِه سهْمٌ إليَّ مفوَّقُ

ومن الشعراء الذين فُتِنوا بالخمر الخالديّان أبو بكر وأبو عثمان فلقد انصرفا إليها كلّية حتى كادت تكون أغلب شعرهما ، وقد أبدعا في وصفها ووصف أدواتها ومن ذلك قول أبي بكر الخالديّ في وصف عتق الخمر وقدمها ولونها الأحمر أو الأصفر [4] :

وعندنا عاتِقانِ حمراءَ كالشمـ ... ـسِ وأخرى صفراءُ كالقمَرِ
بِكرانِ هذي تُعابُ بالكبر الـ ... ـبادي وهذي تُعاب بالصِّغَرِ

وقال أبو عثمان الخالدي يشبّه رائحة الخمر بالعنبر وحبَب الكأس بالدّرّ [5] :

فهاتِها كالعروسِ محمَرّةَ الخدّ يْـ ... ـنِ في مَعْجَرٍ مِـنَ الحَبَبِ

---

(١) المصدر السابق (٦٣) .
(٢) جنوحا ـ هنا ـ تمييز ـ اي : من جهة جنوحها .
(٣) المصدر نفسه (١٢٦) .
(٤) ديوان الخالديين (٥٩) .
(٥) المصدر نفسه (١١١) .

كادتْ تكون الهواء في أرجِ العَنْـ ـبَرِ لو لم تَكنْ من العِنَـبِ
فلَوْ تَرى الكأسَ حين يمزُجُها رأيتَ شيئاً من أعجبِ العَجَبِ
نارٌ حَواها الزّجاجُ يُلْهِبها الـ ـماءُ ودُرٌّ يدُورُ في لَهَبِ

ووصفَ الصنوبريّ عتقَ الخمر وقدمها ولونها الأصفر فقال [1] :

بِكْراً معَتّقَةً عَذْراءَ واضحَةً تبدو فتُخبرُنا عن سالفِ الزَّمَنِ
خَمْراً مُرَوَّقَةً فاقِعَةً كأنما مزجت من طرفكَ الوَسِنِ

وكما تحدث شعراء سيف الدولة عن الحمر وأوصافها وأدواتها وحببِ كؤوسها تحدثوا عن الساقي والساقية ووصفوا جمالهما ودلّهما .

ويبدو أنه كان للساقي شروطٌ وعادات مرعية إذ لا بد أن يكون بديع الجَمال زائداً في الظرف والدّلال . ومن أدبه أن يستأذن جُلساءه وندماءه في المزْج أو عدَمه ، فإن منهم من لا تناسبه الراحُ صرفاً ، ومنهم من يختار الممزوج قليلاً ، ومنهم من يختار الممزوج كثيراً ، فإن كان الساقي عارفاً بأخلاق الجماعة ، عامل كلاً منهم بما يلائم طباعه من غير سؤال [2] .

ومن الشعراء الذين وصفوا الساقي وتغزلوا في جماله ومزجوا بين صفاته وصفات الخمرة الوأواء الدمشقي حيث قال [3] :

ومُهَفْهَفٍ كالغُصنِ هزّتهُ الصبا فصَبا إليهِ من السّكونِ هوائي
يوهِيهِ حملُ وشاحِهِ فتراهُ مِنْ تَرَفِ النّعيمِ يئنّ في إخْفاءِ
تَدْمى سَوالِفُـهُ إذا لاحَظْتَهُ بخَفِـيّ كَرّ اللّحْظِ والإيحاءِ

---

(١) ديوان الصنوبري (١٣٤) .
(٢) اتجاهات الشعر العربي : الدكتور محمد مصطفى هدارة (٤٩١) .
(٣) ديوان الواواء (١٩) .

ويُديرُ عيناً في حديقةِ نَرْجِسٍ كسوادِ يأسٍ في بياضِ رجاءِ

وقال الصنوبري يصف الساقي [1] :

يا صاحِبَيَّ اسْقِيـاني لا عدمتكما جزاكما اللهُ بالإحْسانِ إحْسانا
وعـاطِياني كُمَيْتَ الرَّاحِ صافيةً مما تخيّره كِسرى بنُ ساسانا
بكُفّ ساقٍ رخيمِ الدّلّ تحسبه لمّا هوى من فُتورِ الطّرفِ وسَنانا
إذا رأتْ مُقْلتي بُستانَ وجْنتيه فحَسْبُها أن ترى ما عشت بُستانا
لا تُسْكِراني مِنَ الصّهْباءِ هاأنذا من لوعةِ الحُبّ قد أصبحتُ سكرانا

وتغزل أبو بكر الخالدي في جمال الفتاة السّاقية فذكر أن مقلتها حوراء ، وحسنها فتّان يسْبي الناظرين لأنها تحكي الشمس في جمالها [2] : وذلك حيث يقول :

شربْتُها من يدي حوراء مُقْلَتُها تُغني القلوبَ بتبعيدٍ وتقريبِ
شَمْسٌ إذا طلعتْ قالتْ محاسِنُها ها قد طلعتُ فيا شمس الضّحى غيبي

ووصف كذلك شعراء الندوة السيفية منازل الخمر ومجالسها وأماكن شربها وتحدّثوا عن الندمان وظرفهم والسقاة وحسنهم وجمالهم .

وتنوعت مجالسهم فارتادوا الأديرة للعبث والمجون ومعاقرة الخمر وهيئوا مجالس الخمر في الحدائق الغُنّ والبساتين الوارفة الظلال وجمال الطبيعة الخلاّب وحسن الرياض الفتّان .

ولقد كانت الأديرة غنيةً بكرومها وخمورها وكانت مفتحة الأبواب

---

(١) ديوان الصنوبري (٥٠٠) .
(٢) المرجع نفسه (٢٢) .

للشعراء طوال العام فهم يلمّون بها ويتناولون الخمر منها وقد يعكفون على الشرب فيها أياماً متواليات . فلذلك أكثر هؤلاء الشعراء من القول فيها والحديث عنها وكان شعرهم يدور حول وصف الخمر والغزل بغلمان الأديرة وفتياتها ووصف الطبيعة الباسمة حولها .

ومن قصائد الديارات الخمرية قصيدة أبي بكر الخالدي التي وصف فيها مجلساً له مع ندمائه [1] في دير عُمَر الزعفران [2] فقال [3] :

عَطّلْتُ دارِسَةَ المَغـاني وعَمَرْتُ عُمْرَ الزَّعْفرانِ
وأقَمْتُ في غُرَفٍ لـدَيْـ كأنها غُرَفُ الجِنـانِ
وتَرى قَنـانيناً مُفَـدّ مَةً بـآسٍ خُسْرَواني
والرَّاحُ أحْصَـنُ جُنّـةٍ لكَ في مُقارعَةِ الزَّمانِ
لا تـأمَنَنَّ صرُوفَـهُ فالدَّهرُ ليسَ بذي أمـانِ

وكان الشعراء كثيراً ما يمزجون بين الخمر ووصف الطبيعة الجميلة التي تحيط بالدَّير ومن ذلك قول الصنوبري في دير زكي [4] :

حبّذا الكرخُ ، حبّذا العمرُ لا بلْ حبّذا الدّير ، حبّذا السّرْوَتانِ
قد تَجَلّى الربيعُ في حُلَلِ الزَّهْـ ـرِ وصاغَ الحَمام حلي الأغاني
ألْبَسَتْهـا يَدُ الربيع منَ الألْـ وانِ بُرُداً كـالأتحمي اليماني [5]

---

(١) قال في القاموس : وقد يكون الندمان جمعا .
(٢) وهو على رأس جبل مطل على نصيبين وديار ربيعة من جانب ، وعلى طور عبدين وبعض ديار بكر من جانب آخـر ، وبه كثير من الزعفران وهو عجيب البناء كثير الرهبان . مسالك الابصار (١ / ٣٠٦) .
(٣) ديوان الخالديين (١٠) .
(٤) دير مار زكي : من اديار السريان الكبرى المشهورة كان بظاهر مدينة الرقةوشيد على الارجح في السنة الخامسةللميلاد ـ الديارات (٣٨٤).
(٥) الاتحمي : من البرود هو الاحمر وهو نسيج فاخر موشى ينسج ببلاد العرب .

ويستطرد الشاعر فيخاطب خليليه أن يبادرا إليه بالخمر وأن يُبعدا عنه الماء :

يـا خَليليَّ هـاتُما عَلّـلاني عاطياني الصَّهْبـاءَ لا تدرآني
أبْعِدا الماء ، أبعِدا الماء ، قُومـا أدْنيا ، أدنيا بناتِ الدّنـانِ
أسْقِيـاني من كلّ لونٍ من الرّا حِ على كلّ هذهِ الألـوانِ

وكما وصف الشعراء الأديار منازل لهوهم وسرورهم وصفوا أيضاً الرياضَ التي كانوا يحتسون الخمرة بين ظلالها الوارفة وأزهارها الجميلة وجداولها الرقراقة ومن ذلك قول الصنوبري [1] :

قُم فاغتنِمْ شرْخَ الشّباب وعاطني بِكْراً ترى لشُعاعِهـا إيماضا
تَرَكَ المِزاجُ على تورّدِ خدّها من مستديراتِ الحَبابِ عِراضا [2]
ولها دَبيبٌ ما جرى في مِفْصَلٍ إلا شفى الأسقـامَ والأمْراضا
في روْضَةٍ كَسَتِ السّماءُ ربُوعِها حُلَلاً من النّبت البهي عِراضا [3]
ألِفَتْ مآلفها فأحْدَقَ حولَها ورَقُ الرَّبيعِ حَـدائقاً ورِياضا
وسَرَتْ سَواري المُزْنِ في جنباتها فسَقَتْ بقاعاً حَولهـا وغِياضا

وقال السري الرفاء يصف روضة اعتاد أن يشرب فيها الخمر حتى أن حمامها ألِفَهُ لكثرة تردده عليها [4] :

تُصافِحُ الكأسَ يَـدي ما أرتَدَّ خَطْبُ أو صَفَحْ
في روضَةٍ قـد لَبِسَتْ من لؤلؤِ الطّلّ سُبَحْ

---

(١) ديوان الصنوبري (٢٥٤) .
(٢) العراض : المسّم في صورة خط .
(٣) عراض : جمع عريض : من العرض المقابل للطول .
(٤) ديوان السري (٧٤) .

يـألَفُني حَمـامُهـا مُغْتَبِقـاً ومُصطبحْ
أوقِظُـهُ بالعَزْفِ أوْ يُوقِظُـني إذا صَدَحْ
والجَـوُّ في مُمسَـكٍ طِرازُهُ قَـوْسُ قُزَحْ
يَبْكي بـلا حُزْنٍ كما يضحكُ مِنْ غَيرِ فَرَحْ

وقد وصف كشاجم روضةً شرب بها الخمر في يوم مَطير فذكر غيثها الباكي وبرقها الضاحك ووردها الفاتن [1] :

يا طِيبَ يَوْمٍ خَـلاعَةٍ وبطالة قصَّرْتُه بتَمَتّعٍ ولَذاذَةِ
في روضَةٍ جُلِيَتْ على أبْصارِنا فيما كستْهُ من الحُلِيّ النّابتِ
والغَيْثُ يَبكي في خـلالِ نباتِها والبرقُ يضحكُ منه ضحكَ الشامتِ

وكما تحدث الشعراء عن أماكن شرب الخمر ووصفوها تحدثوا كذلك عن مجالسها التي كانت تحفل بالندامى والقيان ووصفوا حالة السّكر وفَقْدِ العقل والرُّشد فقال الصنوبري [2] :

أشتهي أن أرى قُدوري تفورُ وكؤوسي على النّدامى تدُورُ
وأرى مجلسي وقد حَجَزَ الرَّيْـ ـحانُ ما بينَ أهلهِ والبَخورُ
وتداعَتْ فيهِ القِيانُ كما قد يتداعى على الغصونِ الطيُورُ
وخَلَصْنا فما نُفكّرُ إلاّ في حبيبٍ نُزورِهِ أو يزورُ

ولم يكتف الشعراء بوصف أماكن الخمر التي كانوا يتناشدون فيها الأشعار ويجالسون النّدامى والقِيان ويستمعون إلى العزف والألحان وإنما

---

(١) ديوان كشاجم المخطوط (٢٠) .
(٢) ديوان الصنوبري (٣٨ ــ ٣٩) .

دعَوْا أصدقاءهم وخلاّنهم للمشاركة في هذه المجالس وذكروا لهم ما بها من خمر وصهباء وخلاّن ظرفاء . وقال السري يدعو صديقاً له [1] :

لنا روضَةٌ في الدّارِ صيغَ لزهرها ... قَلائِدُ من حَلْيِ النَّدى وشُنوفُ
يُطيفُ بِنا منها إذا ما تنَفّسَتْ ... نَسيمٌ كعقل الخالديّ ضَعيفُ
ونَدْمانِ صِدْقٍ نثرُهُ ونِظامُهُ ... ربيعٌ إذا فاوضتَهُ وخَريفُ
وماءٌ حكى أشعارَ حَمْدٍ بِبُرْدِهِ ... ولكنّهُ مَحْياً وتلكَ حُتُوفُ
وقد رَقَّ ثوبُ الغيمِ حتّى كأنما ... تَنَشّرُ دونَ الأفقِ منه سجوفُ
فزُرْ مجلِساً قد فضّلَ اللهُ أهلَهُ ... وشرَّفَهُمْ أنَّ الأديبِ شَريفُ

وإذا كان شعراء الخمريات قد أطنبوا في وصف الخمر ودعوة الأصدقاء لمجالسها فإنهم كثيراً ما لجأوا إلى أصدقائهم يستهدونهم بنت الحان وذلك إذا شَحّتَ ونضُبَ معينها ومن ذلك قول الصنوبري يستهدي خمراً من صديق له يسمى أبا القاسم في لغة رقيقة لطيفة ويعتب عليه عتباً خفيفاً لرده له في مرة سابقة [2] :

بأبي يا ابنَ الفروعِ الناضرهْ ... والنّجومِ المشرقاتِ الزّاهرَهْ
لي أخٌ لما رأى نفسيَ مِنْ ... وَجْدِها بالرّاحِ شِبْهَ الطائرهْ
قال : شِمْ كَفّ أبي قاسِمَنا ... فبحارُ الرّاحِ فيها زاخرَهْ
قلْتُ : إنّا قدْ رُدِدْنا مرّةً ... وعلى اللهِ تمامُ العاشِرَهْ

ونحن نلاحظ فيما تقدم أن الخمريات قد تصوبت وتصعدت في شعر شعراء سيف الدولة وأنهم مزجوا بين الخمر والروضيات وبينها وبين الغزل

---

(١) ديوان السري (١٧٢) .
(٢) ديوان الصنوبري (٧٧) .

وأن معانيها قد دقّت وصورها قد تعددت وتشعبت بالإضافة إلى قوة التشخيص والقدرة الهائلة على التشبيه والرسم والتصوير . وإنهم وصفوا مجالس الخمرة فأبدعوا وطرقوا أبواب الديارات فأجادوا وبرعوا . وأن طبيعة العصر وحضارته ظهرت آثارها في شعرهم فرقت ألفاظهم وكثرت الأوزان الرشيقة الراقصة في قصائدهم . كما أن بعضهم ترك الحشمة ولجّ في المعصية وطرق معاني العبث والمجون .

وقد استهل بعض الشعراء قصائد المدح بذكر الخمر كما صنع السري في مديحه . ومن المؤسف جداً أن ينزلق هؤلاء الماجنون إلى هذا الحضيض الأوهد . وأن يستعملوا ذلك الفن الشعري الجميل في غير جميل .

التشيع

صوَّر الشعر في رحاب الأمير جانب العفة والمبدأ ، فتحدث الشعراء في شعرهم عن آل البيت وحبهم ومجدوا مآثرهم ومناقبهم وبكَوا ورثَوا شهدائهم وهجَوا أعداءهم من بني أمية وبني العباس لما أنزلوه بآل البيت من اضطهاد وظلم وتعذيب وتشريد وتقربوا إلى الله وتشفعوا إليه بحبهم لهم .

وقد اتّسم هذا اللون من الشعر بالجدّ واتشح بالحسرة والألم العميق وقبل أن نخوض في غُمارِ هذا الضرب من الشعر نودّ أن نشير إلى أنه من الثابت أن بني حمدان كانوا من الشيعة وأن تشيعهم كان سمحاً لا تعصب فيه كما كان الحال عند الفاطميين في شمال إفريقية ومصر ، ولم يكن تشيعهم تشيعاً غالباً بغيضاً كما كان شأن البويهيين . وقال القرماني في تاريخه : كان بنو حمدان شيعةً ولكن تشيعهم كان خفيفاً ولم يكونوا كبني بُويه في غاية القباحة سبابين [1] . وذهب ابن العديم إلى أن أهل حلب كان أكثرهم على مذهب السنّة حتى هجم الروم حَلَب سنة ٣٥١ هـ وقُتل أكثر أهلها فنقل سيف الدولة إلى حلب جماعة من الشيعة من حَرّان وكان سيف الدولة نفسه يتشيع فغلب على أهلها التشيع ، وذكر آدم متز أن العلويين هم الذين كانوا يتوسطون عادة فيما يقوم من خصومات في بيوت الشيعة بين بني حمدان وبني بويه وأكد أن ملوك الشرق – ويقصد بذلك الحمدانيين – كانوا على

---

(١) أعلام النبلاء (١ / ٢٧٩) .

مذهب الشيعة [1] . ولا نود أن نخوض أكثر من ذلك في سَوْقِ الأدلة والشواهد على تشيع الحمدانيين ولكن نود أن نشير إلى أن الحمدانيين كانوا اثني عشرية وأن أبا فراس سيد شعراء أمراء بني حمدان قد أوضح هذا بجلاء في مقطوعة قالها متوسلاً إلى بارئه أن يشفع له بآل الرسول عليهم السلام فعدَّد الأئمة الاثني عشر واحداً بعد الآخر [2] : وذلك حيث يقول :

لستُ أرجو النجاة من كل ما أخـ ... ـشاهُ إلاّ بأحمدٍ وعليٍّ
وابن بنت الرسول فاطمة الطـ ... ـهرِ وسبطهِ والإمامِ عـــليّ
والتّقيّ النّقيّ باقرِ علـمِ الـ ... ـلّهِ فينـــا محمّدِ بنِ عليّ
وابنهِ جعفرٍ وموسى ومَوْلا ... نا عليّ أكرمَ به من عليّ
وأبي جعفرٍ سميّ رسول الـ ... ـلّهِ ثمّ ابنهِ الزّكيّ عليّ
وابنهِ العسكريّ والقائم المُظْـ ... ـهرِ حقّي محمّدِ بنِ عليّ
فبهِمْ أرْتَجي بلوغَ الأماني ... يومَ عرضٍ على مَليك عليّ

فهذه الأبيات فيها دلالة على أن أبا فراس ينتمي إلى المذهب الاثني عشري لأن الأئمة الذين ذكرهم في أبياته وتشفّع بهم هم أنفسهم الأئمة الاثنا عشر الذين ورد ذكرهم في كتب الشيعة .

والمذهب الاثنا عشْري أحد مذاهب الفرقة الإمامية التي تعد من أعدل فرق الشيعة وهم يرون أن الإمامة في علي أولاً ثم في أبنائه على التعيين واحداً بعد واحد . وأن الإيمان بالإمام ومعرفته أصلٌ من أصول الدين وسُمّيت فرقة الاثني عشرية بهذا الاسم لأنها تقول باثني عشر إماماً [3] .

---

(١) الحضارة الاسلامية (١ / ٢٥٨ ــ ٢٥٩) .
(٢) الديوان (٣ / ٤٢٩) .
(٣) ظهر الاسلام : احمد امين (٤ / ١٠٩ ــ ١١١) .

وما دام من الثابت أن أبا فراس كان من الشيعة الإمامية وأن ديوانه يثبت هذا الرأي فمن نافلة الحديث القول بأن الحمدانيين وسيف الدولة كانوا يدينون بهذا المذهب .

وما دام سيف الدولة شيعي المذهب فليس عجباً أن تكون تلك الباقة من شعراء الندوة السيفية في حلب عُلويّة الهوى شيعية المذهب .

ولقد طرق الشعراء في شعرهم الشيعي ألواناً متعددة منها هجاء الأمويين والعباسيين والتنديد بهم لما ألحقوا من حيف وعنَت بآل البيت . ولقد هجم أبو فراس العباسيين ووصفهم بالطغيان ورأى أن العلويين هم أحق الناس بالخلافة .

ومن المروي عن ابن خالويه أن محمد بن سكرة الهاشمي عمل قصيدة يفاخر فيها ولد أبي طالب وينتقص ولد علي ويذكر فيها التحامل عليهم ومطلعها [1] :

بَني عـلـيٍّ دعُوا مَقـالَتَكُمْ لا ينقَصُ الدرّ رصْعُ مَن رصَعَه

فأنشأ أبو فراس قصيدةً عبر فيها عن معتقده ، وهجم العباسيين ورأى في حكمهم الظلم والفساد . وأولها :

الدّينُ مختَرَمٌ والحقّ مهتضمٌ وفَيْء آل رسولِ اللهِ مقتسمُ

ويصف العباسيين بالطغاة ويدعو للانتصاف للدين بالانتقام [2] :

يا للرّجالِ أما للهِ مُنْتَصِفٌ من الطغاة ، أما للدّينِ منتقمُ ؟

---

(١) الديوان (٣ / ٣٤٧) .
(٢) الديوان (٣ / ٣٤٩) .

بَنو عليٍّ رعايا في ديارِهِمُ والأمرُ تملكهُ النسوان والخَدَمُ

ويندد أبو فراس بالعباسيين ويستنكر أن يفتخروا على بني علي وهم لا يجارونهم نسباً ولا شرفاً :

لا يُطْغِيَنَّ بني العباس ملكهُمُ بنو عليّ مواليهم وإن رعموا
أتفخرونَ عليهم لا أبا لكمُ حتى كأنَّ رسولَ اللهِ جدُّكمُ
وما توازَنَ يوماً بينكم شرفٌ ولا تساوتْ بكم في موطنٍ قدمُ
ولا لكم مثلهم في المجدِ متصلٌ ولا لجدّكم معشارُ جَدِّهِمُ

ويذكر أبو فراس أنواع الظلم وألوان الاضطهاد التي ألحقها العباسيون بالعلويين من تآمر عليهم وغدر بهم حتى إن طغيانهم وظلمهم فاقَ ظلم بني أمية فيقول :

ما نالَ منهم بنو حربٍ وإن عظمَتْ تلكَ الجرائرُ إلاّ دونَ نيلكمُ
كمْ غدرة لكم في الدّينِ واضحةٍ وكم دمٍ لرسول اللهِ عندكُمُ
أأنتمُ آلُـــهُ فيما ترون وفي أظفاركم من بنيهِ الطّاهرينَ دَمُ ؟

ويندد بالعباسيين الذين لم يعد بيدهم من أمر الملك شيء :

أبْلِـغْ لديك بني العبّاسَ مألكة لا تدَّعوا ملْكها أملاكها العجَمُ
أيُّ المَفاخِرِ أمْسَتْ في منابركمْ وغيرُكُم آمِرٌ فيهِنَّ محْتَكِمُ

وأبو فراس بهذا يستوي مع شعراء الشيعة في المطالبة بحق العلويين وفي نقد العباسيين وكان جادّاً في ذلك كلّ الجِدّ يطلب الانتقام والثأر [1] :

---

(١) قدماء ومعاصرون : سامي الدهان (١٩) .

وكما ندد أبو فراس بالعباسيين لظلمهم العلويين ندد أيضاً بالأمويين الذين كانوا سبباً في مصرع الحسين فأنكر فعلهم وتعجب من أمرهم . ولقد بدأ قصيدته بالغزل ومزج بينه وبين التشيع ثم انتقل إلى رثاء الحسين وقد جاد التخلص حيث قال [1] :

إنْ لم أكُن أهواهُ أو أهوى الرّدى ... في العالمين لكلّ ما يَهْواهُ
فحُرِمْتُ قُرْبَ الوصلِ منه مثلما ... حُرِمَ الحُسينُ الماء وهْوَ يراهُ

ثم انتقل إلى ذم الأمويين فقال [2] :

تَبّاً لقومٍ تابعوا أهواءهم ... فيما يسوءُهمُ غَداً عُقْباهُ
أتَراهُمُ لمْ يَسْمَعوا ما خَصَّهُ ... منهُ النبيّ من المَقالِ أباهُ ؟
إذْ قالَ يومَ غدير خُمّ مُعْلِناً ... مَنْ كُنتَ مَوْلاهُ فَذا مَوْلاهُ
إقْرُوا من القرآنِ ما في فَضْلِهِ ... وتأمّلوهُ وافْهَمُوا فَحَواهُ
لو لمْ تُنَزَّلْ فيه إلاّ هل أتَى ... من دونِ كلّ مُنَزَّلٍ لَكَفاهُ
مَنْ كان أولَ مَن جنى القرآنَ من ... لَفْظِ النّبيّ ونُطْقِهِ وتَلاهُ ؟

وهجا كشاجم بني أمية في قصيدة ذكر فيها مأساة كَرْبلاء ومصرع الحسين ونَعَتهم بالضلال والغي والخديعة والغش . فقال [3] :

ضَلَلْتُمُ القصْدَ للسبيلِ إلى الـ ... لّه فتاهَتْ بكمْ صُبحاً صَبائحُهُ
يا شِيعَ الغيِّ والضلالِ ومَنْ ... كلُّهُمْ جَمّةٌ فَضائحُهُ
غَشَشْتُمُ اللهَ في أَذِيَّةِ مَنْ ... إليهم أُوتيتَ نصائحُهُ
عَفَّرْتُمُ بالثّرى جَبينَ فَتًى ... جبريلُ قَبْلَ النّبيّ ماسحُهُ

---

(١) الديوان (٢ / ٤٢٢) .
(٢) نفس المصدر (٣ / ٤٢٤) .
(٣) ديوان كشاجم المخطوط (٣٦ ــ ٣٨) .

على الـــذي فـــاتهُمْ بحَقّهِـــمْ لعْنٌ يغـــادِيهِ أو يُـراوِحُه

وينذرهم بوعيد الله ويهددهم بعقابه فيقول :

وفي غَدٍ يعرِفُ المخالِفُ مَن خاسرُ دينٍ لهُمْ ورابحُهُ
وبينَ أيديكمُ حَريقٌ لَظىً يَلفَحُ تلكَ الوجوهَ لافحُهُ
إذْ عبْتُموهمْ بجهلكُمْ ولَما يضُرّ بدْرَ السّماء نابحُهُ
أو تكتموا فالقُرْآنُ مُشْكِلُهُ بفضلِهِ نـــاطِقٌ وواضحُهُ

ومن الشعراء الذين أكثروا في شعر التشيع الشاعر الصنوبري الذي فخر بالعلويين ورثى الحسين وغيره وذكر كربلاء ومصائب الشهداء ، وتصدّى لحقّ عليٍّ وقومه ، وكأنه إمام أو زعيم من زعماء الشيعة ، يؤيد هذا الحق ويرمي الجاحدين له بسهام النقد .

والجدير بالذكر هنا أن الصنوبري على الرغم من قصائده الكثُر في آل البيت ودفاعه القوي عنهم وتعريضه بالأمويين لم يتعرض للعباسيين كغيره من شعراء سيف الدولة ولعل تعليل ذلك أن الصنوبري قضى جُلّ حياته في حلب أيام الإخشيديين الذين كانوا يتبعون الخلافة العباسية ولذلك لم يكن من السهل أن يعرّض بالعباسيين دون أن يلحقه الأذى . وقد عاجله الموت مع بدء قيام دولة الحمدانيين الشيعية في حلب إذ توفي في عام ٣٣٤ هـ أي في السنة الأولى لنشوئها ، فلذا لم يعش في كنف سيف الدولة مدة طويلة تسمح له أن يشعر بالأمن وعدم الوجل من عقاب العباسيين فيما إذا تعرض لهم ودافع عن حق العلويين بالحكم والرياسة . كما صنع غيره من شعراء الندوة السيفية فيما بعد .

ورثى الصنوبري النبي وآله عليهم السلام وتعرض لفاجعة كربلاء فبكى

الحسين وصحبه ثم ندد بالأمويين ونعتهم بالظلم والغدر وقرّعهم وذمّهم [1]:

يا عُصْبَةً لمْ تخَفْ مِنْ إلهِها أنْ تَجُورا
يا عصْبَةً لمْ تُراقِبْ قُرآنَهُ المَسْطُورا
ألمْ يكُنْ حَمْلُ رأسِ الـ ـحُسَينِ خَطْباً كَبيرا
ألمْ يَكُنْ مَنْعَهُ المـا ءَ كان شَيْئاً نَكيرا
يا مَنْ يَذُودَ حُسَيْناً عَنِ الفُراتِ فُجُورا
تَذودُ عَنْهُ حُسَيْناً بَغْياً وتَسْقي البَعيرا
غَداً تطُورُ بَعوض النّبـ ـيِّ لا أنْ تَطورا [2]

ويعرّض الصنوبري في قصيدة أخرى بالأمويين وينعتهم بالضلال وعدم ثبات الإيمان ويقول إنهم انتقموا في كربلاء لبدرٍ ويهجم يزيد ويذمّه [3]:

يا صُدوراً كانتْ قبُورَ تُرابٍ فأصابَتْ منهُ لها نَبـاشا
تلْكَ أضْغانُ بدْرٍ انتُبِشَتْ من بعدِ ما لمْ تكنْ تُطيقُ انتباشا
في يزيدَ يا سادتي عجَبٌ يَنْـ ـجُشُ فِكْري فيما يبني نجاشا [4]
حملت فروش ملككم منه من يصْـ ـغُرُ عن أن يدَّعي لكم فرّاشا

ويهدد يزيد ويلعنه وينعته بالجَور والظلم فيقول [5]:

يزيدُ مهما اقترضْتَ اليوم من تِرَةٍ فالمرءُ مسترجعٌ منه الذي اقْترضا
رَبَضْتَ ما يلي الدّنْيا لتَحْمِيَها كالكلب من حيث لاقى جيفه رَبضا

---

(١) ديوان الصنوبري (٩٥) .
(٢) يطور : يحوم حول الشيء ويدنو منه .
(٣) ديوان الصنوبري (٢٢٣) .
(٤) ينجش : يستثير .
(٥) ديوان الصنوبري (٢٧٠) .

فمَلّ منكَ غريضُ المُلكِ مُعتدياً ما مَلّ من لعنهِ يوماً ولا غَرضا [1]

وكما ذمّ يزيد ولعنه ذمّ ولعَن عبيد الله قائد الأمويين في كربلاء [2] :

وابنُ اللّعينِ عبيدُ اللهِ قد قرضا مُختارُ مدّتَهُ بالسيفِ فانْقَرَضا
بعدَ اعتراضِ عُبيدِ اللهِ سادَتَنا بالخيلِ وهْوَ يراها للرّدى غَرَضا
بخيلِ إبليسِ هاتيكَ التي رَكَضَتْ لمّا ترامَى لها إبليسُ قد رَكَضا

وكما ندد شعراء سيف الدولة بالعباسيين والأمويين برز في شعرهم البكاء على آل البيت والتفجع على ما أصابهم من ظلم كما مجّدوا العترة الطاهرة عموماً وأشادوا بمناقبهم ومواقفهم المجيدة في الإسلام واحتجّوا لهم بأنهم أحق من غيرهم بالخلافة . واتخذ هؤلاء الشعراء من التشيع وسيلة للشفاعة وتوسلوا بآل البيت إلى الله جلّ شأنه .

قال الصنوبري يشيد بالعلويين ويعدد مآثرهم في الإسلام [3] :

يا عينُ فيضي رواحاً لهُمْ وفيضي بُكُورا
فيضي لحَمْزَةَ أو لِلْـ ـعَبّاسِ فَيْضاً غَزيرا
عَمَّيْهِ زادَهُما مَنْ كساهُما النّورُ نُورا
المُطْفِئَيْنِ لَظَى الحَرْ بِ دُونَهُ والسّعِيرا
ولمْ أزَلْ مُنْذُ خاضَتْ بيَ الأمورُ أُمورا
يَهِيجُني ذكرُ يومِ الطّيا رِ حَتّى أطِيرا [4]

---

(١) غرض : مل وضجر .
(٢) ديوان الصنوبري (٢٧٢) .
(٣) ديوان الصنوبري (٩٤) .
(٤) الطيار : هو جعفر بن ابي طالب استشهد في مؤتة .

ويستطرد الصنوبري فيعدد صفات العلويين وخصالهم الحميدة فهم الصائمون والمنطوون بطوناً والذين يطعمون اليتيم ويساعدون المحتاج[1] فيقول :

مُلّيتُ للفـــاطِميّينَ لَـوعَـةً وزَفـيرا
الافْضَلِـينَ جِهاداً والأفْضَلِينَ نَصيرا
الصّائِمِينَ المُصْلّـ ينَ طُهّروا تطْهيرا
والمُنْطَوِينَ بُطُـو نَاً والمُنحنينَ ظُهورا
والمُطْعِمِينَ يَتيماً والمُطْعِمِينَ أسيرا
أهْلِ الكِساءِ الأجلّيـ نَ مِنْبَراً وسَريرا

ويصور الشاعر واقعة الحسين ويبكي وينتحب ويذكر مصرعه في كربلاء :

يَوْمُ الحُسينِ على الدّيـ نِ كنتَ يوماً عَسيرا
مَلأتِ واللهِ كَرْبـاً يا كَرْبَلاءُ الصّدورا
كأنّني بِرَحى الحَـرْ بِ أوشَكَتْ أنْ تدورا
والفـاطِميّونَ تَقْرِ يهُمُ السّيوفُ الطّيورا[2]
والفـاطِميّات ينحَرْ نَ بالدّموعِ النّحورا

وله من قصيدة أخرى في الغرض نفسه، صوّر بها يوم كربلاء تصويراً مؤلماً وذكر مصرع الحسين وبكاء أم كُلثُوم وذرّيّة الرسول عليه السلام من النساء فقال[3] :

---

(١) ديوان الصنوبري (٩٥) .
(٢) يقصد بالفاطميين العلويين عامة .
(٣) ديوان الصنوبري (١٢٩) ، ونسبت الى كشاجم في ديوانه المخطوط ص (٧٥) .

أذْكُرُ شَجْوي ببَني هاشمٍ شَجْوي الذي يشجى به الذّاكرُ
أذكرُهم ما ضَحِكَ الروضُ أو ما ناحَ فيهِ وبكى الطّائرُ
مُساهري وجْدي بما نابهُمْ لا نامَ عنهمْ وجْديَ السّاهرُ
يومُ الحُسينِ ابتَزَّ صبري فما مني لا الصبرُ ولا الصابرُ[1]
ظمآن والمُهْرُ به ما بِـهِ لا يَبْعَدُ المُهرُ ولا الماهرُ
حتّى إذا دارَ بِنا ساءنا على الحسينِ القَدَرُ الدّائرُ
خَرَّ يضاهي قَمَراً زاهِراً وأينَ مِنْهُ القَمَرُ الزّاهرُ
وأُمُّ كُلْثُومٍ ونِسْوانُها بمَنْظَرٍ يُكْبُرُهُ النّاظِرُ
يُسابِقُ الطَرْفَ إليها وقَدْ أنْحى على مَنْحَرِهِ الناحرُ

وقال في قصيدة رثى بها الحسين وبكى مصرعه يتوسل إلى آل البيت ويرجو شفاعتهم به[2] :

لا تُطمِعَنَّ النّفسَ في إعطائها شيئاً فتطلُبُ فوقَ ما تُعطيها
حُبُّ النّبيّ محمّدٍ ووصيّهِ مع حُبّ فاطِمةٍ وحبِّ بنيها
أهلُ الكِساءِ الخمسةُ الغرالّتي يبني العُلا بعُلاهُمُ بانيها
هم صفوة الكرَم الذي أصفيتهمْ وُدّي وأصفيت الذي يُصْفيها
أرجو شفاعَتكُمْ فتلك شَفاعَةٌ يلتذّ بَرْدَ رجائِها راجيها
صَلّوا على بنتِ النّبيّ محمّدٍ بعدَ الصلاةِ على النبيّ أبيها

ويبكي الشاعر على آل البيت ويرثيهم رثاء حاراً فيقول :

وابْكوا دِماءً لو تشاهدُ سفكها في كربلاءَ لما ونَتْ تبكيها

---

(١) في الديوان « لا صبر ولا الصابر » والفن يوجب ما فعلناه أو تكون العبارة « لا صبر ولا صابر » .
(٢) ديوان الصنوبري (٥١٠) .

يا هَوْلها بينَ العَمائمِ واللّحى تجري وأسْيافُ العِدا تُجريها
تلكَ الدماءُ لو انها تُفدى إذا كُنّا بِنا وبغيرَنا نَفْديهـا
لو أنَّ منها قَطرةً توقي إذا كانتْ دماءُ العالَمينَ تَقيها
إنَّ الّذينَ بَغَوا إراقَتها بغَوا مشْئومَةَ العُقبى على باغيها
قتلُ ابنُ من أوصى إليه خيرُ منْ أوصى الوصايا قطُّ أو يوصيها

إلى أن يقول :

نبكي قبوراً إن بكَينا غيرَها بعضُ البُكاءِ فإنما نَعْنيها
نَفِدَتْ حياتي في شجىً وكآبَةً للهِ مُكْتَئِبُ الحياةَ شَجِيها

ويختتم الصنوبري قصيدته معلناً كلَفه بالرثاء وكثرة شعره فيه ، ولعل ذلك بسبب الفواجع التي رزىء بها والتي ظلّلَتْ نفسه بظلالِ الحُزن والأسى فلذلك كان حرَّ العاطفة صادق القول في رثائه . وذلك حيث يقول :

وأنـا المُدَلّهُ بالمراثي كلّما زادَتْ أزيدُ بقولها تَدْليها
يَرْثي نفوساً لوْ تُطيقُ إبانَةً لرَثَتْ لهُ مِن طولِ ما يَرثيها

وقال كشاجم يشيد بمآثر ومناقب آل البيت ويعدّد محامدهم من بلاغة وعُلوّ وتضحية في سبيل الله ورفض للدّنيا وشراء للآخرة [1] :

آلَ الرَّسُولِ فَضَلْتُمُ فَضْلُ النّجومِ الزّاهِرَهْ
وبَهَرْتُمُ أعْداءَكُمْ بالمـأثِراتِ السّائرَهْ
ولكمْ معَ الشّرَفِ البَلا غَةُ والحُلُومُ الوافِرَهْ

---

(١) ديوان كشاجم المخطوط (٧٥) .

فـإذا تُفُوخِرَ بالعُلا فيكُمْ علاكُمْ فاخِرَهْ
هذا وكَمْ أطْفَـأتُمُ عنْ أحمدٍ من ثائِرَهْ
بالسُّمْرِ تخْضَبُ بـالنّجيـ ـعِ وبالسيوفِ الباتِرَهْ
تُشْفَى بهـا أكبادُكمْ منْ كلّ نَفْسٍ كافِرَهْ

وقال السريّ الرفاء الشاعر المبدع في قصيدة طويلة يمدح آل البيت [1] :

ورُبّ غرّاءَ لم تُنْظم قلائدَها إلاّ ليُحمدَ فيهـا الفاطميونا
الوارثونَ كتاب الله يمنحُهم إرثَ النبيّ على رغمٍ المعادينا
والسابقونَ إلى الخيراتِ ينجدهم عِتقُ النجار إذا كلّ المجارونا

وقد عرض الشاعر بأعداء العلويين الذين لا يضاهونهم حسباً ونسباً فهم ذوائب قريشٍ وعرانينُها فقال :

قومٌ نصلّي عليهم حينَ نذكرُهم حُبّاً ونطعَنُ أقواماً ملاعينـا
إذا عَدَدْنا قريشاً في أباطِحِها كانوا الذوائبَ منها والعرانينا
أغْنَتْهمُ عن صفات المادحينَ لهُم مَدائحُ اللهِ في طَهَ وياسينـا
فلَسْتُ أمدَحُهم إلاّ لأرغم في مديحِهمْ أنْفَ شانِيهِمْ وشانينا

ويتحدث الشاعر عن مصرع الحسين فيذكره بحسرة وألم وأسى فيقول :

أقامَ رَوْحٌ وريحانٌ على جَدَثٍ شلْوُ الحسين به ظمآن أمينا
كأنّ أحْشاءنـا من ذكرِهِ أبداً تُطوى على الجمر أو تُحشى السكاكينا

ويذكر الشاعر حبه لآل البيت كرّة أخرى ويبين كلَفه وتعلّقـه بهم فيقول [2] :

---

(١) ديوان السري الرفاء (٢٧٣) .
(٢) المصدر نفسه .

آلَ النّبيّ وجدْنا حُبّكم سبَباً يرضى الإلهُ به عنّا ويُرضينا
فما نُخاطِبُكُمْ إلاّ بِسادَتِنا ولا نُنادِيكُمُ إلاّ مَوالينا
وكمْ لنا مِن فَخارٍ في مودّتكم يزيدها في سَوادِ القلْبِ تمكينا
إن أجْرِ في حبكم جريَ الجوادِ فقدْ أضحَتْ رِحابُ مساعيكُمْ ميادينا

ويجدر بالذكر أن سمات التشيع ظهرت بجلاء في الشّعر السّيفي ولم تقتصر على التشيع وحده من حيث هو لون من ألوان الشعر بل تأثرت بها بعض الأغراض الأخرى كالمديح والفخر والغزَل .

ومن ذلك قول أبي فراس مفتخراً :

نَفَى النّوْمَ عَنّي همّةٌ عَلَوِيّةٌ وقَلْبٌ على ما شئتَ منه مظاهرُ

وقد مزج أبو فراس الغزل بالتشيع فقال [1] :

إنْ لم أكنْ أهواهُ أأهْوى الرَّدى في العالمينَ لكلّ ما يهْواهُ
فحُرِمْتُ قرْبَ الوصْلِ منهُ مثلما حُرِمَ الحسينُ الماءَ وهو يراهُ

كما مزج الخبّاز البلديّ بين الغزل والتشيع كذلك فقال [2] :

أنا إنْ رُمْتَ سُلُوّاً عنْكَ يا قُرَّةَ عيني
كنتُ في الإثم كمن شا رَكَ في قَتْل الحُسينِ
لك صولاتٌ على قَلْـ بي بقَدٍّ كالرّدينِي
مثلُ صَوْلاتِ عَلِيٍّ يومَ بَدْرٍ وحُنَيْنِ

ونحن نلاحظ أن شعر التشيع قد اتسم بالصدق والإخلاص إلى جانب

---

(١) ديوان ابي فراس (٢ / ٤٢٢) والبيتان تقدما من قبل .
(٢) اليتيمة (٢ / ٢١٠) .

الانفعال والحماس وأن شعراء التشيع قد تأثروا بالقرآن الكريم فاقتبسوا منه أكثر مما اقتبسوه في أشعارهم الأخرى . وأن لهذا الشعر قيمة تاريخية كبرى لأنه يعنى بالاستدلال والوقائع والأسس والنظريات . كما أن هذا النوع من الشعر ابتعد عن الصنعة والتكلف وهجر الزخرف والتأنق ولا غرابة في ذلك فهو ذوب العاطفة الحرة الصادقة والعين الباكية الشاكية .

obeikandl.com

الاخويات

يصور هذا اللون من الشعر الاجتماعي الصلات والروابط التي كانت تربط الأصدقاء من الشعراء . ويتحدث هذا الشعر بين سطوره عن الصداقة والأخوة والمودة . والتهنئة والاعتذار والعتاب والشكوى والتعزية والاستعطاف.

ولقد ساعدت المساجلات والمراسلات الشعرية واستخدامها استخدام النثر على انتشار هذا اللون من الشعر .

وقد كثُر الشعر الأخويّ الذي كان يدور بين الشعراء وشاع وانتشر ونحن نختلف مع الدكتور درويش الجندي الذي ذهب إلى القول بأن هذا اللون من الشعر « كان يدور بين الحمدانيين ورجالهم وبعض ، ولم يجارهم في الإكثار من هذا الشعر الشعراء الشعبيون الذين كانوا يتخذون الشعر حرفة لاكتساب المال ، فهم مشغولون عن العواطف الأخوية بعواطفهم الرسمية ، أو بعبارةأخرى بعواطفهم المادية تجاه الأمير الذي يمنح الذهب ويغدق العطاء »[1].

ونحن نرى هذا القول مجانفاً للواقع وبعيداً عن الحقيقة إذ أن دواوين الشعراء الحمدانيين حافلة بالشعر الأخوي الذي عبروا به عن عواطفهم وصوروا علاقاتهم ولعل من يعود إلى دواوين هؤلاء الشعراء ككشاجم والصنوبري والسري الرفاء يذهب إلى الرأي الذي ذهبنا إليه ويأخذ بالقول الذي قلنا به .

---

(١) الشعر في ظل سيف الدولة : الدكتور درويش الجندي (٢٥١) .

فأخويات شعراء بني حمدان يمكن أن تعد من حيث كثرتها وموضوعاتها مدرسة خلقية في ذلك العصر . ولا شك أن هذا اللون من الشعر قد حظي بنصيب الأسد في شعر شعراء الندوة السيفية ولا شك أيضاً أنه حسنة من حسنات البيئة الحلبية ودرةٌ في عِقْدِ جيدها النضيد .

ومن أرق الأخويات لفظاً وأحرها عاطفة أخويات الشاعر الأمير أبي فراس الحمداني خاصة تلك التي أنّ بها في الأسر وعبر فيها عن آلامه وأحزانه وصوّر عنت جسمه ومرارة سجنه .

ويمكننا أن نقسم أخويات أبي فراس إلى قسمين ما قاله قبل الأسر وما نفثه شَجَناً بعده . ونحن نلاحظ أن أخويات أبي فراس قبل أسره بالإضافة إلى الغرض المقصود من الأخوية ذاتها شملت أيضاً كثيراً من شعر الفخر والمديح.

ومن أخوياته في هذا المجال الرسائل الشعرية التي تبادلها مع بعض إخوته أمثال أبي الهيجاء وأبي الفضل وأبناء عمومته مثل سيف الدولة وأبي زهير المهلهل وأبي العشائر الحسين وأبي المُرَجّى بن ناصر الدولة وبعض أقاربه وشخصيات مجتمعه مثل أبي الحصين قاضي حلب وغيره .

ولقد بعث أبو زهير برسالة شعرية إلى أبي فراس ، فأجابه أبو فراس بقصيدة تحدث فيها عن مناقب أبي زهير ووصفه بالتقى والعلا فقال (١) :

تجَلّلْتَ بالتّقوى وأُفردْتَ بالعُلا ... وأهْلَلْتَ للجُلّى وحلّيتُ بالفخرِ
وقَلّدتَني لمّا ابتدَأتَ بمِدحَتي ... يَداً لا أُوَفّي شكرها أبدَ الدّهْرِ
فإن أنا لم أمنحكَ صِدْقَ مودّتي ... فما لي في المجْدِ المؤمّل من عُذْرِ

---

(١) الديوان (٢ / ٢١٩) .

ويشيد أبو فراس بشعر ابن عمه ويصفه بأنه منعدم المثيل والشبيه فيقول :

وإنّكَ في عَذْبِ الكلامِ وجزْله لتغرفَ من بحرٍ وتنحت منْ صَخْرِ
ومثلكَ معدوم النظيرِ منْ الورى وشعرُك معدوم الشّبيهِ من الشعرِ

وكتب أبو فراس إلى القاضي أبي حصين علي بن عبد الملك وقد عزم على المضي إلى الرقّة وأبان فيها عن مودته وحبه لأبي الحصين فيقول [1] :

ياطول شوقيَ إن قالوا: الرّحيل غداً لا فرّقَ اللهُ فيما بينَنـا أبدا
يا مَن أصافيهِ في قربٍ وفي بُعدٍ ومَن أُخالصُهُ إن غابَ أو شَهدا
لا يُبْعِد اللهُ شخصاً لا أرى أنساً ولا تطيبُ لي الدّنْيا إذا بعُدا
راعَ الفِراقُ فؤاداً كنتَ تُؤنِسُهُ وذرّ بَينَ الجفون الدمعَ والشّهدا

وبعث إلى أبي الحصين كتاباً آخر يعاتبه فيه لتأخره عليه بالمكاتبة قال فيه[2] :

إنّي عليكَ أبـا حصينٍ عاتِبٌ والحُرّ يحتملُ الصديقَ ويصبرُ
وإذا وجدْتَ على الصديقِ شكوْتَهُ سرّاً إليهِ وفي المَحافِلِ أشكرُ
ما بالُ شِعري لا تَرُدّ جوابَهُ سحبان عندك باقِلٌ لا أعذُرُ [3]

وأرسل القاضي أبو حُصين كتاباً إلى أبي فراس فردّ غليه مخبراً عن وصول الكتاب ومتحدثاً عن حبه له وشوقه إليه بقوله :

أتَى كتابُكَ والأنفاسُ خافِتَةٌ والجسْمُ مُستسلِمٌ والسّقم قاهرُهُ

---

(١) المصدر السابق (٩٨) .
(٢) ديوان ابي فراس (١٧٢) .
(٣) سحبان وائل الذي ضرب المثل بفصاحته كما ضرب المثل بعي باقل .

والطّرْفُ منكسرٌ والشّوْقُ طارِقه والوَجْدُ باطنه والصبرُ ظاهرُهُ
فانْتَاشَني وأعادَ الرّوحَ في بَدَني وشَدَّ صدْعاً وكسراً أنت جابرُهُ

ونلحظ أن أخويات أبي فراس امتزجت بالفخر والمديح والشكوى والعتاب والحكم واتسمت بالصدق وتبينت فيها عواطفه المتقدة نحو من يبادلهم مساجلاته الشعرية .

أما بالنسبة لأخويات أبي فراس في الأسر ، فمن أهمها رسائله الشعرية التي بعث بها إلى سيف الدولة يحثه فيها على الفداء ويمزج ذلك بالمديح والعتاب والاستعطاف والشكوى والفخر .

ومما بعثه إلى سيف الدولة قصيدة أخبره فيها بخروج الدّمستق وحثّه على الاستعداد ورجاه أن يقدم الفداء المطلوب وأشاد بسيف الدولة الذي من شيمته الوفاء [1] .

لكنَّ سيفَ الدولةِ المولى الـذي لم أنْسَهُ ولا يَرى يَنْساني
أيُضيعُني من لم يزلْ لي حـافِظاً كرَمـاً ويخفضني الذي أعْلاني
خِدْنُ الوفاء ، ولا وفيٌّ غـيرُهُ يَرْضى أُعاني ضيقَ حالةِ عاني

ومن أخوياته قصيدة بعث بها إلى سيف الدولة يعتب عليه فيها عتباً شديداً وذلك لامتناع الأمير عن الفداء إلاّ أنّ يكون عاماً ولهذا شكا منه أبو فراس ورآه مشاركاً للدهر في الوزر وعدّه خطباً نزل به مع خطوب الدهر [2] :

زماني كلّهُ غَضَبٌ وعَتْبُ وأنتَ عليَّ والأيّامُ إلْبُ
وعَيشُ العالَمينَ لديك سهلٌ وعَيشي وحدَهُ بفنائكَ صَعْبُ

---

(١) ديوان ابي فراس (٣ / ٤١٠ – ٤١١) .
(٢) المصدر نفسه (٢ / ٢٦) .

وأنتَ وأنت دافِـعُ كلّ خطْبٍ مع الخطْبِ الملمّ عليَّ خطْبُ
إلى كمْ ذا العقابُ وليس جرْمٌ وكم ذا الاعتذارُ وليس ذنْبُ؟

ويتحدث الشاعر عن عذل الحاسدين والوشاة الذين كانوا السبب في تغير قلب الأمير عليه فيقول :

أمِثلي تُقبلُ الأقوالُ فيهِ ؟ ومثلكَ يستمرُّ عليهِ كِذبُ ؟

وينتقل كعادته إلى الفخر بنفسه برقة ولين ويمزج عتابه بالفخر فيقول :

جِنـــاني ما علِمتَ ولي لسانٌ يقُدّ الدّرْعَ والإنسانُ عَضْبُ
وزنْدي وهو زندك ليس يكْبُو وناري وهيَ نارك ليس تَخْبُو
وفَرْعي فَرْعُكَ السّامي المُعَلّى وأصْلي أصلُكَ الزّاكي وحسْبُ

وكأن أبا فراس خشي أن يثير غضب الأمير عليه بهذا العتاب العنيف فرق في آخر القصيدة ومدحه وأظهر محبته وطاعته له فقال :

فدَتْ نفسي الأمير كأنَّ حظّي وقُربي عندهُ ما دامَ قُرْبُ
فقُلْ ما شئت فيّ فلي لسانٌ مليٌّ بالثّناء عليكَ رَطْبُ
وعامِلْني بإنصافٍ وظُلمٍ تجدْني في الجميع كما تحِبّ

ومن أخويات أبي فراس قصيدة كتبها إلى أخيه أبي الهيجاء يعذله فيها على عظيم ما لحقه عند أسره من الجزع ويتحدث فيها عن أحزان أخيه بسبب أسره فيقول :

سَقَى اللهُ أرضَ الموصل المزنَ إنها لمنْ حلَّها فرْضٌ لهُ الحبّ واجبُ
بنفْسي وإنْ لمْ أرضَ نفسي لراكبٍ يُسائلُ عَنّي كلّما لاحَ راكِبُ

قَريحُ مجاري الدَّمع مستَلَبُ الكَرى يقَلقِلُه هَمٌّ من الشّوْقِ ناصِبُ

وكأنه كان يخشى على أخيه من شدة هذا الهم فيفديه بنفسه ويتمنى أن يحمل همه وهم أخيه فيقول :

ألا ليتَني حُمّلتُ همّي وهَمّهُ وأنّ أخي ناءٍ عن الهمّ عازبُ
فمنْ لمْ يجدْ بالنفس من دون حُبّهِ فما هو إلاّ مارِقُ الوَدّ كاذِبُ

وبعد أن طال أسر أبي فراس ولَجّ به البعد امتزجت قصائده الأخوية بالشكوى والحكمة والعتاب بدلاً من الفخر وسادت شعره فلا نكاد نجد قصيدة له إلاّ فيها ملامح من ذلك ولعل قصائده التي أرسلها إلى أمه التي حزنت حزناً عظيماً لما حاق بوحيدها من مرارة الأسر خير مثال على ذلك .

بعث إلى أمه قصيدة شاكية من ثقل الجراح ويبدو فيها ألمه الشديد إلاّ أنه يحاول الجلد ويدعو أمه إلى التأسي والصبر . فقال [1] :

مَصابي جليل والعَزاءُ جميلُ وظَنّي بأنَّ اللهَ سوفَ يُديلُ
جِراحٌ وأسرٌ واشتياقٌ وغربةٌ أحمّلُ إنّي بعدها لحَمولُ
وإنّي في هذا الصباحِ لصالحٌ ولكنَّ خطبي في الظّلام جَليلُ
جِراحٌ تحاماها الأساةُ مخوفَةٌ وسُقمان بادٍ منهما ودَخيلُ
وأسرٌ أُقاسيهِ وليلٌ نجومُهُ أرى كلَّ شيءٍ غيرهنّ يزولُ

ويدعو أمه إلى الصبر قائلاً :

فيا أُمَّتَا لا تعدلي الصبر إنّهُ إلى الخيرِ والنُّجح القريبِ رسولُ

---

(١) المصدر السابق (٢ / ٢١٣ ـ ٢١٤) .

ويختتم قصيدته هذه التي تعد من أروع أشعاره الشاكية بالحكمة الآتية :

ومَنْ لم يُوقَّ اللهُ فهو ممزّقٌ ومنْ لم يعزّ اللهُ فهوَ ذَليلُ
وما لمْ يُرِدْه الله في الأمر كله فليسَ لمخْلوقٍ إليهِ سبيلُ

ولقد اتسمت أخويات أبي فراس بالصدق التام والإخلاص في القول والانفعال ، كما أنه مزجها بالشكوى والفخر وبعض الحكم أحياناً وبالمديح والاستعطاف أحياناً أخرى ، كما رأيناه يفعل مع سيف الدولة .

ولقد أجاد أبو فراس وأبدع في هذا الفن إذ عبر به عن واقع مؤلم وصوَّر فيه مرارة الأسر ورسفه في أغلال القيد .

وإذا كان الشعراء الأمراء من بني حمدان قد طرقوا الأخويات ونظموا فيها غرر القصائد والمساجلات فكذلك كان لبقية شعراء الندوة السيفية مليح الشعر ورائع النظم في هذا اللون من الشعر .

ولقد حظي غرض الأخويات بنصيب الأسد من شعر أبي الفتح كشاجم الذي اتسمت أخوياته بالإطالة والشمول وهذا أمر غير مألوف في شعر من عاش عصره إلاّ عند أبي فراس لطول مكوثه في الأسر . ومن خير أخوياته قصيدة بعث بها إلى بعض أبناء الرؤساء يعاتبه فيها على عدم استقباله لرسوله الذي أرسله إليه حاملاً كتاباً ، وذلك حيث يقول :

ها قدْ كتبْتُ فما ردَدْتَ جوابي ورجعْتُ مختومـاً عليَّ كتابي
وأتَى رسُولي مُسْتَكيناً يَشْتَكي ذُلَّ الحجابِ ونَخْوَةَ البَوّابِ
وكأنّني بكَ قد كتبتُ مُعَذّراً وظَلَمْتَني بمـلامَةٍ وعِتابِ

ثم يرجو الشاعر صديقه أن يعود إلى المودةوالصفاء وأن يرجع إلى الإنصاف فيقول :

فارجع إلى الإنصافِ وأعلم أنه أولى بذي الآداب والأحسابِ
يا رحمةَ اللهِ التي قد أصبحتْ دونَ الأنامِ عليَّ سوطَ عذابِ
بأبي وأمّي وأنت من مستجمعٍ تيه القِيانِ ورِقّةَ الكُتّابِ

وكان كشاجم يتشبث بأصدقائه ويكن الولاء لهم ويبكي الراحلين منهم ، كما كان يحرص على صداقتهم وعدم مجاهرتهم بالعداوة لأتفه الأسباب ، ومن هذا القبيل قصيدته التي قالها في قوم من إخوانه رحلوا عن بلاد الساحل حيث قال مخاطباً الدهر مستغرباً أمره :

نُوَبٌ تُبْتَلى بها الأحْرارُ وخطوبٌ صغارُهُنّ كبارُ
أيها الدّهر ناذرٌ أنت نَذراً في أذانا ، أعِنْدنا لكَ ثارُ ؟
كل يوم تثقف الأسلَ السّمرَ لنا منكَ أو تَحُدُّ الشّفارُ

ويلتفت إلى صديقه فيصور ألمه وحزنه لفراقه :

يا أبا القاسمِ المؤمّلِ أسْما عُ البرايا تقيكَ والأبصارُ
أصبحْتَ إذ رحلت عن مدن السا حلِ مفجوعَةٌ بكَ الأقطارُ
فالهواءُ الذي عهدت منها غليظٌ والدّيارُ التي عرفت فيها قفارُ

ولقد كان كشاجم صديقاً وفياً وأخاً ودوداً للصنوبري وتوثقت صلة المودة والأخوة بينهما وقد عبر كشاجم عن صداقته للصنوبري بقوله :

أتَنْسى زمَناً كُنّا بهِ كالماءِ والخَمرِ
أليفَيْنِ حَليفَيْنِ على الإيسارِ والعُسْرِ
نُرى في فلكِ الآدا بِ كالشمس وكالبدرِ
كما أَلَفَتِ الحكمـ ـةُ بينَ العُودِ والزّهرِ

ومن روائع شعر الأخويات لكشاجم قصيدته التي أرسلها إلى صديقه أبي بكر الصنوبري يعاتبه فيها برقة ولين ويذكره بأيام المحبة الصادقة والوداد الصافي حيث يقول :

أخٌ لِيَ كنتُ أُغبطُ بـاعْتقادِه ... ولا أخشى التنكّر منْ وداده
هِلالٌ في إضاءتِه حياً في ... سماحته شهابٌ في اتّقادِهْ
أُهاديه القَوافي مُسرِعاتٍ ... إليه فليتَ أنّي لم أُهادِهْ
وأقبسُهُ فيوري مِنْ زِنادي ... ويقبسُني فأُوري من زِنادِهْ
وأعضُدُه برأيٍ منْ سَدادي ... ويعضدُني برأيٍ مِنْ سدادهْ

وينتقل الشاعر إلى تصوير جفاء صديقه في سعة من الخيال ووفرة من العواطف الصادقة فيقول :

وكانَ قِيادُهُ بيدي ذَليلاً ... فصعّبَتِ الحَوادِثُ مِنْ قيادهْ
فأصبَحَ قَدْ تبرّأَ مِنْ وَدادي ... كما بَرِىء المتيّمُ من فؤادهْ
وعانَدني ولمْ أعْلَمْ بأنّي ... سأنْقُلُ من هواهُ إلى عنادِهْ
ومعتدٍّ عليَّ ولَسْتُ مِمّنْ ... يُكدّر صفْوَ وُدٍّ باعْتِدادِهْ
مُعنّى بانتقادِ حُليِّ شِعْري ... وفضلُ الحلي يظهرُ في انتقادِهْ
ولو حاولْتُ أنْ يُزْري ببَدْرٍ ... طلبْتُ لهُ المعايبَ من سوادهْ
وما كلّ الكَواكبِ مُسْتَنيرٌ ... فيفْنى بالإضاءةِ في انْفِرادِهْ
جَفا وأبانَ عَنْ طَرْفي لذيذ الـ ... كَرى وأذال خدّي عن وسادِهْ

ويصف الشاعر مودته لصديقه وحبه له بصورة بليغة مؤثرة فيقول :

ولو سفكَتْ يداه دمَ ابنِ عمّي ... أو ابني لم أترهُ ولم أُعادِهْ
ولو قَتَلي أراد قتلتُ نَفْسي ... لهُ عمْداً ليبلغَ من مُرادهْ

أُواصل إنْ جفا وأُغضّ إمّا هَفا وألينُ في وقتِ حدَادهْ

ويختم الشاعر قصيدته بمدح صديقه الصنوبري في مهارة وحذق وحرارة وصدق فيقول :

ونظمكَ درّ لفظٍ في قريضٍ كنظم العِقد يُزهى بانعقادهْ
أقلْني إن عثرتُ وخذْ بكفّيْ أخيكَ وفُكّ طرفي من سهادهْ
فما كتبتْ يدي الأبياتَ حتّى جرى قلمي بدمع في مِدادهْ
وإن أكُ مذْنباً وعفوتَ عني فإنّ الله يعفو عنْ عبادهْ

ولقد أجابه الصنوبري بقصيدة تفيض صدقاً ومودة وقد نسبها الدكتور الشكعة خطأ إلى كشاجم [1] . فقال أبو بكر الصنوبري [2] :

أخٌ لي عاد من بعدِ اجتنابِهْ وفرّقَ بينَ قلْبي واكتئابهْ
حباني بالعتابِ وكان ظَنّي بهِ ألاّ سبيلَ إلى عِتابِهْ
وخاطبني فخلتُ بأنّ زهْرَ الرّ با الموشّى يجنى من خطابِهْ
بلفْظٍ لو بدا لحليف شيبٍ لفارقَهُ وعـاد إلى شبابِهْ
فقرّبَ بينَ أجفاني وغمضي وباعَدَ بينَ دَمْعي وانسكابهْ
ورد البرءُ في جسم ثوى مِنْ سقامِ الصّدّ حين ثوى لما بِهْ
إذا انتسبَ الثّقاتُ إلى وفاءٍ فحسبُكَ بانتسابي وانتسابِهْ

ويستطرد الصنوبري عارضاً صور المحبة والمودة التي تربطه بصديقه في خيال واسع وعاطفة جياشة حيث يقول :

---

(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين (٢٨٦) .
(٢) ديوان الصنوبري (٤٥٧ ـ ٤٥٨) .

أبا الفتح افتتحتَ الفصل لمّا فككتَ معذّباً بك من عذابِهْ
أُعيذك أن يكونَ رضاكَ يعدُو فتىً ما كان سُخطٌ في حسابهْ
فقد سكّنْتَ قلباً كادَ ممّا حشدْتَ عليه يخرج من إهابِهْ
وأطفأ بَرْدُ وصلِكَ حرّ هجرٍ تلهّبتِ الجوانحُ بالتِهابِهْ
بنفْسي شيمةٌ لكَ لو أُتيحتْ لذي ظمأ لكانت من شَرابهْ

ويبدو لنا أن السبب في تعكير الصفاء والمودة بين كشاجم والصنوبري يرجع إلى معارضة الصنوبري لأرجوزة كشاجم التي مطلعها :

شطّتْ لليلى بـــاللّوى دارٌ وكانَتْ لا تشط

إذ عارضها الصنوبري بقصيدة مطلعها [1] :

سؤالُكَ الرَّبْعَ شطَطْ دَنا العزاء أو شحَطْ

ولقد أشار إلى ذلك الصنوبري في قصيدة استعطف بها صديقه كشاجم لما عتب عليه في معارضة أرجوزته فقال :

فيمَ عادَ الرّضى أبا الفتح سُخْطا والدّنوُّ الذي عهِدناهُ شَحْطا
أمْ لماذا نقضتَ شرْطَ أخٍ لا ينقضُ الدَّهْرُ للأخُوّةِ شَرْطا
تتخطّى إلى التّجنّي وما عُذْ رُ خليلٍ إلى التّجنّي تَخَطّى
إنْ يكُنْ لي تذكّري الطّاء جرمٌ لا تراني من بعدها أذكرُ الطّـــا

ومن أخويات الصنوبري الرقيقة البارعة الموسيقى واللفظ ما كتبه يتشوق إلى قريب له رحل ونأت به الديار حيث يقول :

يا قَريبَ الدّارِ مِنْ قَلْ بي وإنْ شَطَّ المَزَارْ

---

(١) ديوان السري (٢٨٣) .

نائيـاً مِنّي وإنْ لَمْ تُدْنِني منْكَ الدّيارْ
مثّلَتْكَ النّفسُ لي إذْ لمْ يكنْ عنكَ اصطبارْ
وأرانيكَ عـلى مـا بِكَ شَوْقٌ وادّكارْ
نحنُ إن نستشعرِ القُرْ بى فَقُرْبـانا شِعارْ
رَحِمٌ يعْطِفها الودّ ويثنيهـا الجوارْ
وامْتِزاجٌ مُثْلما يُمْـ زَجُ بالمـاءِ العُقارْ
وصفاءٌ لمْ يكنْ يَخْـ فى وهلْ يخفى النّهارْ

ونلاحظ أن الشاعر عبّر عن عاطفته نحو قريبه بانفعال وصدق ودون تكلف وتصنع ولقد ظهر تأثر الشاعر بالخمر التي كانت مظهراً واضحاً من مظاهر حياته إذ أنه شبه علاقة المودة ووشائج الأخوة التي تربطه بقريبه بالعقار الذي يمزج بالماء .

ولقد خاض السريّ الرفّاء بأخوياته موضوعاً فريداً إذ أنه عتب على صديق له وقد أسر إليه حديثاً فأذاعه فقال (١) :

رأيتُكَ تُسدي للصديق نوافذاً عدوّك من أوصابها الدهر آمنُ
وتكشفُ أسرارَ الإخلاّء مازحاً ويا رُبّ مزْح عاد وهو ضغائنُ
سأحفَظُ ما بيني وبينكَ صائناً عهودكَ إنّ الحرَّ للعهدِ صائنُ
وألقاكَ بالبشرِ الجميلَ مداهِناً فلي منك حليٌ ما علمتمداهنُ
أنِمّ بما أستودعته من زجاجةٍ ترى الشيء فيها ظاهراً وهوباطنُ

وله في الموضوع نفسه قصيدة حوت التشبيهات البديعة والمعاني المبتكرة اللطيفة :

---

(١) ديوان السري الرفاء (٢٦٧) .

أرومُ مِنْكَ ثماراً لستُ أُجْنيها وأرتجي الحالَ قَدْ حلّتْ أواخيها
أستودعُ اللهَ خلاًّ منكَ أُوسِعُهُ وُداً ويُوسِعُني غِشّاً وتمويها
كأنَّ سرّي في أحشائِهِ لَهَبٌ فما تُطيقُ لهُ طَيّاً حواشيها
قد كان صدرُكَ للأسرارِ جنْدَلَةً ضنينةً بالّذي تُخفي نواحيها
فصار من بثِّ ما استودعْتَ جوهرةً رقيقَةً تستَشفّ العينُ ما فيها

ونلاحظ أن السريّ قد عمد إلى التحليل والتعليل والمقابلة والتشبيهات الرائعة فهو يوسع خلّه ودّاً وخله يقابله بالغش والتمويه وشبّه السر بالنار القاتلة والصدر بعد إفشائه للسر بالجوهرة الشفافة الرقيقة التي تكشف العين ما فيها بيسر وسهولة .

ويعاتب أبو بكر الخالدي أحد أصدقائه ويشتد في عتابه ويصفه باللّوم ويسير على نهج السري من حيث التعليل والتصوير والاهتمام بالتشبيه فيقول [1] :

وأخٍ جَفَا ظلماً وملَّ ، وطالما فقْنا الأنامَ مَوَدَّةً ونَدامـا
فسلَوْتُ عنهُ وقلتُ ليس بمُنكرٍ للدَّهرِ أن جعل الكِرامَ لِئاما
فالخمْرُ ، وهيَ الرَّاحُ ، ربّما غدتْ خَلاًّ وكانتْ قبلَ ذاكَ مُداما

وواضح تأثر الخالدي بالخمر التي ملكت عليه نفسه حتى كادت يكون فيها أغلب شعره إذ أنه يصور صديقه الذي عقه بعد ودّ بالخمر التي فسدت فأصبحت خلاّ .

وقبل أن نختتم هذا الموضوع نود أن نشير إلى أن المساجلات الشعرية عدت بين شعراء هذا العصر وسيلة للتعبير في حين كان النثر هو وسيلة التعبير الأولى .

وكان الشعراء يحرصون في المساجلات التي جرت بينهم على أن يتفق كل منهم مع صاحبه في البحر والقافية والرّويّ . ومن هذا القبيل المساجلات

---

(١) ديوان الخالديين (٩٣) .

والتي جرت بين يحيى بن فهد الأزدي وأبي الفرج الببغاء ، إذ كانت بينهما مودة فكتب يحيى بن فهد الأزدي إلى أبي الفرج بعد خروجه من بغداد يتشوق ويقول [1] :

ظَعَنْتَ فما لأنْسي مِنْ ثَواءٍ ... وبِنْتَ فَبانَ عَنْ قلبي السّرورُ
ولو أنّي قضيتُ حقوقَ نَفْسي ... تبِعْتُكَ كيفَما جرتِ الأمورُ
ووُدّي لَيْسَ يَنْقُصُهُ مَغيبٌ ... كما لا يَسْتَزيدُ لهُ حُضورُ
فإنْ تَبْعُدْ فإنّكَ ملء صدري ... ووُدّكَ جُلَّ ما تحوي الصّدورُ

فأجابه أبو الفرج بقصيدة ملأى بالعاطفة والمودة وعلى البحر نفسه والقافية والروي [2] :

بقُرْبِكَ من بِعادِكَ أسْتَجيرُ ... وهلْ في الدَّهْرِ غيرُك من يُجيرُ
نأيْتَ فما السّلْوى دُنُوٌّ ... وغِبْتَ فما للذّاتي حضُورُ
وقَدْ صاحَبْتُ إخْواناً ولكن ... متى تُغني عن الشّمس البُدُورُ
فَيا مَن رُعْتَ منه الدَّهر قِدْماً ... بمَنْ تسمُو بخِدْمَتِه الأمُورُ
ومَنْ قدّرتَ أنَّ لهُ نَظيراً ... فحينَ طَلَبْتُ أعوزني النظيرُ
إذا كنتَ السرورَ وغِبْتَ عَنّي ... فكيفَ يتمّ بعدَكَ لي سرُورُ

ونحن نميل إلى القول بأن هذا اللون من الشعر قد زخر بالعاطفة الصادقة وبعد عن الغلو والمبالغة والمغالاة التي كانت سمة بارزة من سمات الشعر في هذا العصر .

كما لا يفوتنا أن نذكر أن الأخويات قد مالت إلى الرقة والليونة والسهولة

---

(١) نشوار المحاضرة (٢ / ٥٢) .
(٢) المصدر نفسه (٢ / ٥٢) .

واليسر في التعبير كما أنها حفلت بالتصوير والجِدَّة والابتكار في المعاني والصور .

والذي نراه أن الأخويات تعد صورة حية ناطقة معبرة عن الروابط الاجتماعية التي كانت تربط بين الشعراء الذين اتخذوا من الشعر مجالاً لتصوير عواطفهم وانفعالاتهم وأحاسيسهم كما يفعل الكتّاب في النثر .

ولا تتأتى أهمية هذه الأشعار من كونها تسجل انطباعات أصحابها الوجدانية وخلجاتهم النفسية فقط وإنما تنطوي أيضاً على دلالات اجتماعية كبيرة

obeikandl.com

الطرد

عرف شعر الطرد الذي يقال في الصيد منذ الجاهلية فلقد كان الشاعر الجاهلي يتحدث في جزء من قصيدته التي يكتبها في المدح أو النسيب أو الهجاء أو الفخر أو غيرها من الموضوعات التي يخوض فيها عن الطرد فيصف تتبعه للظبي أو حمار الوحش أو الطائر . وكان ألمع شعرائهم في هذا اللون من الشعر امرؤ القيس بن حجر الذي قيل انه أفضل الشعراء إذا ركب .

وفي صدر الإسلام وعهد بني أُمية استمر الطرد ولكنه لم يكن غرضاً مستقلاً إذ كان الشعراء يخوضون في هذا الموضوع في بعض قصائدهم التي ينظمونها لأغراض أخرى .

أما في العصر العباسي فلقد بلغ الاهتمام بالطرد حداً كبيراً بعيد المدى حتى أننا نجد أغلب خلفاء بني العباس يُقبلون على هذه الهواية التي أصبحت في عصرهم جزءاً من مظاهر الحضارة .

ولم يقتصر أمر هواية الصيد على الخلفاء وحدهم ولكنها انتشرت بين أبناء الطبقة المترفة الغنية الذين زاولوا هذه الهواية وأغرموا بها .

ويبدو أن الشعراء كانوا يشتركون في رحلات الصيد. ولهذا كان من البدهي أن يصفوها ويصوروا ما كان فيها يحدث من صيد الحيوان والطير ووصف أنواع الطير والحيوانات المدربة وأدوات الصيد التي كانوا يستخدمونها .

ولعل الشاعر أبا نواس كان أكثر شعراء بني العباس كلفاً بالطرد وهو أكثرهم شعراً وأبرعهم وصفاً وأدقهم تصويراً لهذا اللون من الشعر

ولقد صدق كاتب دائرة المعارف الإسلامية حين قال : إن ديوان أبي نواس هو أول ديوان في الأدب العربي يضم باباً في الطرد [1] .

وإذا كان الطرد قد وجد اهتماماً من خلفاء بني العباس فإن اهتمام بني حمدان به لا يقلّ عن ذلك إذا لم يكن أكثر . فلقد شغف الأمراء الحمدانيون بهذه الهواية وأقبلوا على مزاولتها ونظم بعض شعرائهم كأبي فراس شعراً رائعاً في تصوير الصيد والطرد .

ولأبي فراس أرجوزة في وصف الصيد تفردت بطولها فقد بلغت سبعة وثلاثين ومائة بيت وهي تميل إلى الأسلوب القصصي الممتع وفيها الحديث عن الصيد وأدواته . ويستهل أبو فراس قصيدته بالحكمة ومطلعها :

ما العُمرُ ما طالَتْ به الدَّهورُ العُمْرُ ما تمَّ به السّرورُ

وقد وصف أبو فراس الاستعداد للرحلة ودعوة الصياد والفهّاد والبازيارين لاختيار الجوارح الحاذقة في الصيد :

دعَوْتُ بالصَّغّارِ ذاتَ يوْمٍ عنْدَ انْتباهي سحراً من نَوْمي
قلتُ له اخْتَرْ سبعَةَ كِباراً كلّ نجيبٍ يَرِدُ الغُبارا
يكونُ للأرنَبِ مِنْها اثْنانِ وخمسَةٌ تُفْرَدُ للغُزْلانِ
واجعَلْ كلابَ الصيْدِ نوْبَتَينِ يُرْسل منها اثنان بعد اثنينِ
ثمَّ تَقَدَّمْتُ إلى الفَهّادِ والبازيارِينَ بالاستعدادِ

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية « مادة ابو نواس » .

ويختار الشاعر مجموعة من الرفاق الذين يعهد بهم الفضل والنجابة ويصف صحبه في الرحلة فهم عشرون من الأصدقاء أو ما يزيد وكلهم يتصفون بخفة الروح والطيب والفضل :

باللهِ لا تستصحِبوا الثّقيلا واجْتَنِبوا الكثرةَ والفضولا
رُدّوا فُلاناً وخُذُوا فلانا وضمّنوني صيدكم ضمانا
فأخترتُ لمّا وقَفوا طَويلا عشرينَ أو فويقهـا قليلا
عِصابَةٌ أكْرِمْ بهـا عصابهْ معروفةٌ بالفضلِ والنجابهْ

ويستطرد أبو فراس فيصور عملية الصيد تصويراً بارعاً ويصف مطاردة شاهينين أرسلهما لمطاردة الطير المنتصر بأعداد كبيرة[1] :

دارا عَلَيْنا دوْرَةً وحَلّقا كِلاهما أُختٌ إذا تَعَلّقا
تَوازَيـا وطَرَدا إطّرادا كالفارِسَيْنِ التَقَيا أو كادا
ثُمّتَ شَدّا فأصابـا أرْبَعا ثلاثَةً خُضْراً وطيراً تبِعا

ويختم الشاعر قصيدته فيصف المحصول الوافر من الصيد الذي جنوه من هذه الرحلة والشراب الكثير الذي أقبل عليه رفاقه :

ثمَّ انصرَفْنا والبِغالُ موقَرَهْ في لَيْلَةٍ مِثْلَ الصَّباحِ مسفِرَه
حتّى أتَيْنا رحلَنـا بِلَيْلِ وقَدْ سَبَقْنا بجِيادِ الخيلِ
ثم نَزِلْنا وطَرَحْنـا الصَّيدا حتى عَدَدْنا مائَةً وزَيْدا
فلم نزَل نشوي ونَقلي ونصُبْ حتى طَلَبْنا صاحباً فلمْ نُصِبْ
شُرْباً كما عنّ منَ الرّفاقِ بغيرِ ترتيبٍ وغيرِ ساقي

---

(١) ديوان ابي فراس (٣ / ٤٤٧) .

ولم نزَلْ سبْعَ ليالٍ عَدَدا أسعدَ من راحَ وأحظى من غدا

ونلاحظ أن أبا فراس مزج بين الوصف واللهو من ناحية والوصف والفروسية من ناحية أخرى كما أن معظم أوصافه حسية لا تتغلغل في الوصف إلى الأعماق إلاّ في القليل النادر .

وبالإضافة لأبي فراس أكثر شعراء الندوة السيفية القول في الطرد فوصفوا صيد البر كما وصفوا صيد البحر ، وكان من أكثرهم قولاً في هذا الغرض من الشعر كشاجم والسري الرفاء والصنوبري والمتنبي والببغاء .

وكان كشاجم أكثر شعراء سيف الدولة قولاً في الطرد وأبرعهم وصفاً للطير . ويجب ألاّ ننسى أنه ألف في الصيد كتاب « المصايد والمطارد » تحدث فيه عن الطيور الجارحة وصفاتها وأخلاقها وسبل تدريبها كما تحدث عن كلاب الصيد ووحوشه [1] .

ولقد تعددت الصور التي جيء بها في صيد البر فمنها ما جاء في وصف الصيد بجوارح الطير أو ما جاء يصفه بضواري الحيوان أو بالقوس والبندق .

ومما جاء في وصف الطرد بجوارح الطير قول كشاجم في وصف صقر أحمر [2] :

غَدَوْنا وطرْفُ اللّيل وسنانُ غائرٌ وقد نزلَ الإصباحُ واللّيلُ ساترُ
بأجدَلَ مِن حرّ الصّقورِ مؤدّبٍ وأكرَمَ ما جرّبتُ منها الأحامرُ
جَرِيء على قَتْلِ الظّباءِ وإنّهُ ليُعْجِبُني أن يقتلَ الوحش طائرُ
قصيرُ الذّنابَى والقُدامى كأنّهـا قوادِمُ نسْرٍ أو سيوفٌ بواتِرُ

---

(١) المصايد والمطارد : تحقيق د. محمد اسعد طلس (٨٥) .
(٢) المصدر نفسه (٨٧ ــ ٨٨) .

ورقش منه جؤجؤٌ فكـأنّما أعارَتْهُ إعجامَ الحروفِ الدّفاترُ

وينتقل كشاجم فيصف عملية الصيد وكيف تحفز الصقر عندما رأى الرّبْرَب فأخذ يضرب جناحيه متهيئاً للانقضاض ثم أطلق قيده فانقض عليها فهوت صرعى بين مخالبه :

وتَحْمِلُهُ مِنّـا أكُفٌّ كريمةٌ كما زُهِيتْ بـالخاطبينَ المَنابرُ
فعَنّ لنا من جانب السّفحِ ربرَبٌ على سَنَنٍ تستَنّ فيـه الجآذرُ
تَجَلّى وحلّت عقدةُ السيرِ فانتحى لأوّلها إذْ مكّنَتْهُ الأواخرُ
يَحُثّ جَناحَيْهِ على حُرّ وجْهِه كما فعلتْ فوقَ الخدودِ المغافرُ
فما تمّ غمض الطّرف حتى رأيتُها مصرّعَةً تهوي إليهـا الحناجرُ
كذلكَ لَـذّاتي وما نالَ لَذّةً كطالبِ صيدٍ ينكفي وهوَ ظافرُ

ووصف كشاجم البازي في قصيدة كتبها إلى أحد أصدقائه من الكتّاب وكان قد حضر الصيد معه (١) :

لَسْتُ أنسى منكَ ما شاهدته يومَ للصّيدِ غدَوْنا من أمَمْ
وعلى يُسراكَ بازٌ كـرَزٌ شاكَلَتْ همّتهُ منكَ الهِمَمْ
كلّ ما أدركَهُ نـاظِرُهُ فهو بالمخلَبِ منه يصطلمْ
مَلِكٌ نيطِ بيُسرى مَلِكٍ يدْفَعُ الظُّلمَ وإن شاء ظَلَمْ

وكشاجم يمزج بين المدح والطرد ويصف مخالب الباز الحادة وينعته بسيد الصقور ثم يصف الشاعر فتك الباز بالطيور وكيف ينقضّ عليها بشراسة وعنف ويصفه بالقوة والحذق والمهارة :

فَهِمَ التّأويبَ حتى لاكتفى بالإشاراتِ له دونَ النّغَمْ

---

(١) المصايد والمطارد (٧١ ـ ٧٢) .

تتعرّى ضِفّةُ النهرِ بـــه حينَ هَمَّ الحَينُ أو كاد يهِمْ
ساعـــةً حتى إذا أطْلَقْتَهُ مَرَّ في آثارها مَرَّ الزَّلَمْ
فانتَحَى أبعدَها ثمَّ هَوى وعلى المنْسر منهُ نضْحُ دَمْ
وهْوَ مُوفٍ فوقَها مُلْتزِمٌ ظهْرَها يا بئسَ ذاكَ المُلْتزَمْ

وللشاعر الصنوبري طرديات مختلفة منها قوله في وصف الباز[1] :

ذو مِنْسَرٍ أقْنى ورُسْغٍ كَزٍّ ومخلَبٍ لمْ يعْدُ إشْفا الخرْزِ[2]
مُسربِلٌ مثل حَبيك القَـــزّ أو مِثْلَ جزْعِ اليمَنِ الأرزيّ[3]
جَمّ المهـــاميز شَديـــدُ الهَمْزِ لمّا لَزَزْنا الطّيرَ بعضَ اللّزّ[4]
أبَ لنـــــا بـــالقبجِ والإوَزّ من جبَلٍ صَلْدٍ ومَرْحٍ نَزّ[5]

وهو يصور منسره ومخالبه الحادة التي ينقض بها على الطير فلا تستطيع منه خلاصاً ، ويصور ثيابه من الريش كأنها الحرير أو كأنه الجَزْع أو الخَرَزُ اليماني الذي تغنّى به أمرؤ القيس والطير منتشرة في القيعان وعلى المرتفعات وقد آب منها بكثير من الحجل والإوزّ ووصف الصنوبري الصقر فقال[6] :

أشْغى ترى في رائـــهِ تقويسا له مخاليبُ بُرينَ شُوسا[7]
مطْرُورَةً قد مُلّست تمليسا أُلبِسَ بُرْداً لم يكن ملبوسا[8]

---

(١) ديوان الصنوبري (١٣٣) .
(٢) الاشفا : المخرز .
(٣) حبيك : محبوك ، يعنـــي انه يلبس ريشا ، كالقز المنسوج ، الجزع : الخرز .
(٤) الهمز : الضغط والدفع والحفز . بعض : في الاصل « بعد » ولا معنى لها .
(٥) القبج : الواحدة قبجة ، مرج نز : مرج ذو ثر ، اي يتحلب منه الماء .
(٦) ديوان الصنوبري (١٩٣) .
(٧) اشغى : احجن .
(٨) مطرورة : مشحوذة مسنونة .

لا منهَجَ النّسْجِ ولا لَبّيسا بسْطَ الذّنابي يخجلُ الطاووسا
له جَناحـــانِ إذا ما قِيسا يُباشرانِ الأرض ان قيسا

فالشاعر يصف مخالب الصقر الحادة المشحوذة المسنونة كما يصف جمال ذنبه الذي يزري بجمال ذنب الطاووس وجناحيه الطويلين الجميلين . فهو آية في الحسن والجمال .

ويستطرد الصنوبري فيصور فتك الصقر بالحُبارى فيقول [1] :

آنَسَ شَيْئاً لم يكُنْ أنيسا حُباريات تُشبهُ القُسوسا [2]
فعاثَ فيها يطْمُسُ الرّؤوسا فلو تراها أجفلَتْ كرْدوسا [3]
نكّسها في حَوْمَـــةٍ تنْكيسا فعلُ الخميسِ فضفض الخميسا

وواضح تأثر الصنوبري في أحداث عصره إذ أنه يستمد تشبيهاته وصوره من واقع مجتمعه فيشبّه بطش الصقر بالحُبارى ، بمعركة ضارية نشبت بين جيشين فتك فيها أحدهما بالآخر .

ووصف شعراء الندوة السيفية الصيد بضواري الحيوان ومنها قول الصنوبري في وصف كلابه وما صادت من وحش [4] :

يا روضَةً صاغَ لهـــا حُلِيّهـــا الأشراطُ [5]
الوَحْشُ في أرْجـــائِها قبـــائلْ أخْلاطُ

---

(١) ديوان الصنوبري (١٩٣) .
(٢) يريد انها كالقسوس في زيها .
(٣) الكردوس : الجماعة .
(٤) ديوان الصنوبري (٢٨٧) .
(٥) الاشراط : كواكب ينسب اليها المطر ، فكأنها هي التي انبتت ازهـار الروضة .

غـادَيْتُها ولمْ يُقِمْ أعْلامَهُ الفُسْطاطُ [1]
بـأكْلُبٍ لوْ لمْ تَطِرْ أطـارَها القِطَاطُ
في ساعَـةٍ لأدمعِ الـ ـحُزْنِ بها انحِطاطُ
فجِئنَ والطّلُّ على آذانِهـا أقْراطُ
قَدْ نَحِفَتْ أوساطُها فمَا لهـا أوساطُ
فطَفِقَتْ والوحشُ في مخـالِبِهـا بِساطُ
صَرْعَى تَشِقّ قُمْصُها عَنْهـا ولا تَخاطُ

فالصنوبري يبدأ حديثه عن الروضة التي هي مكان الصيد ويصف ما انتشر عليها من حلل الأزهار والأنوار ، ويذكر كثرة الوحش وأنه باكرها قبل أن يستيقظ القطا وغيره من الطير مرسلاً عليها كلابه القوية النشيطة التي تكاد تسبق الريح ، غير آبهة ببرودة الطقس وما قرّط به آذانها من الندى وانتشرت كالشهاب الساطع ، تصرع الوحش وتشق عنه جلده وتفري أديمه وتمزقه تمزيقاً لا رتق له .

وللسريّ الرفاء طرديات عدة وصف فيها الصيد بالكلاب ومنها قوله [2] :

قُمنا بها نهتِكُ أستارَ الظّلَمْ وبيْننا ذاتُ ضجيج تختصِمْ
إنْ نامَ غزْلانُ الصّريمِ لمْ تنمْ نقرَعُها بينَ الوِهادِ والأكَمْ
أبيضُ مسْوَدُّ الخِلالِ والشّيَمْ لهُ على الصَّحبِ أيادٍ وكرَمْ
ونعَمٌ هُنّ على الوَحْشِ نَقَمْ أسرَعُ قبل الشدّ من سيل العَرَمْ
يقدمُنا إلى الكِناسِ المكتتِمْ مسائلاً عنهُ الصَّبا وهي تَنَمْ
حتى إذا السّرْبُ تراءى من أمَمْ حيرانَ قد ألبسَهُ الذّعرُ لمَمْ

---

(١) الفسطاط : القطا ، يعني باكر تلك الروضة قبل ان تستيقظ الطيور.
(٢) ديوان السري (٢٤٩ ـ ٢٥٠) .

صَدَّ قوافي ثمَّ ألقى للسّلَمْ وظلَّ نهْباً بالأكُفّ مقتسَمْ
لم يشكُ من نابٍ ولا ظفرٍ ألَمْ فما اعتلى في الشرقِ للصّبحِ عَلَمْ

فالشاعر يصف الكلب بالنشاط والقوة والفضل والكرم على الأصحاب ، والنقمة والبأس على الأعداء من الوحش . وهو يعتمد على حاسة الشم القوية التي تمكنه من العثور على مخابىء الحيوانات حتى إذا عثر على أحدها انقض عليه وظل يمزق أديمه ، بأنيابه تمزيقاً عنيفاً .

والسري يضفي دائماً على شعره الإشراق ويختار الألفاظ اللطيفة والمعاني الرقيقة والتشبيهات البديعة ويقول في وصف كلاب صيد أخرى [1] :

غَدَوْتُ بها مجْنُونَةً في اعتِدائِها تُلاقي الوحوشُ الحينَ عندَ لقائها
لهُنَّ شِياتٌ كالذراريحِ أصبحَتْ مؤلّفَةً ظَلْماؤها بضيائِها
وأيدٍ إذا سُلّتْ صَوالِجُ فِضَّةٍ على الوحشِ يوماً أذْهَبَتْ بدمائها

ووصف كلابه الضامرة الظامئة إلى دماء الوحش والقوية النشيطة فقال [2]:

وأكْلُبٌ تَسْتَغْرِقُ الصّفاتِ ضوامِرُ الأحشاءِ مخطَفاتِ
إلى دماءِ الصَّيْدِ صادياتٌ باسطَةُ الآذانِ سابِغاتِ
سواقِطُ الأرْجاءِ ساكِناتِ بلؤلؤ الطّلّ مُقَرَّطاتِ

وكما صادوا بجوارح الطير وضواري الحيوان صادوا بالقوس والبندق . والقسي تتخذ من أعواد شجر النّبع ونحوه لصلابتها ، والبندق مدَمَلق مدوّر يستخدم في قذف الطريدة ويسمى أيضاً الجُلاهِق . وطريقة إعداد الجُلاهق

---

(١) ديوان السري (٦٥) .
(٢) نهاية الارب (١ / ٣٤٨ ـ ٣٤٩) .

أو قسي البندق أنها تتخذ من القنا ويلف عليها الحرير وتُقوى وفي وسط وترها قطعة دائرة تسمى الجوزة توضع فيها البندقة عند الرمي [1] . ويقول الببغاء في وصفها [2] :

ومَرْسانٍ معَبّسَةٍ ضَحوكٍ ... مهَذَّبَةِ الطّبـائعِ والكيانِ
مَغـالبَةٌ وليسَ بها حَراكٌ ... وبـاطِنَةٌ وليس لها يدانِ
وتُدرِكُ ما تشاءُ بغيرِ رِجْلٍ ... ولا باعٍ يطولُ ولا بَنانِ
وتلْحَظُ ما يكلّ الطّرفُ عنه ... بلا نظَرٍ يصحّ ولا عِيانِ
لها عُضْوانِ من عصبٍ ولحمٍ ... وسائرُ جسمها مِن خيزرانِ
يخاطبُ في الهَواءِ الطّيْرُ منها ... بلَفْظٍ ليس يصدرُ عن لسانِ
فإن لم تُصْغِ أردفها بطَعْنٍ ... ينوبُ الطّينُ فيهِ عن السّنانِ

ويصف كشاجم أيضاً الطرد بقوس البندق [3] :

وفي يساري مِنَ الخطّيّ محكَمَةٌ ... متى طلبْتُ بها أدرَكْتُ مطلوبي
للوَعْلِ باطنُ شطريها ومعظمها ... من عُودِ شجراء ظمْياء الأنابيبِ
في وسْطِها مقلةٌ منها تبيّنُ مـا ... يُرْمى فما مقْتَلٌ منها بمحجوبِ
فقُمْتُ والطّيرُ قد حُمّ الحِمامُ لها ... على سبيلي في عَدوي وتَجْويبي
حتى إذا اكتَمَلَتْ بالطينِ مُقْلَتُها ... صَبَبْتُ عليهنّ حَتفاً جدّ مصبوبِ
فرُحْتُ جذلان لم تكدر مشارب لذّاتي ... ولم تُلْقَ آمـالي بتَخييبِ

وهو يصور قوسه المشرعة وتسديده البندق للطير ويذكر أن القوس

---

(١) نهاية الارب (١ / ٣٤٨ ـ ٣٤٩) .
(٢) المصدر نفسه (١ « ٣٥٠) .
(٣) المصدر نفسه (١ / ٣٤٨ ـ ٣٤٩) .

متخذ من عود شجرة صلبة وفي وسطه مكان لإطلاق البندق القاتل الذي يفتك بما يرمي .

ويصف عملية الصيد نفسها وفتكه بسرب من الطيور وعودته بالصيد الموفور والفرح الكبير .

والسري الرفاء في طردية له يصور قوس البندق تصويراً جميلاً حافلاً بالتشبيهات [1] :

مصَفّرَةٌ ما شانها اصْفِرارُها أحسنُ من منظرِها أخبارُها
تُزجي حِساناً قبحتْ آثارُها أفتكَ من كبارها صغارُها [2]
فلستُ أدري أيهـا خِيارُها تلفحُ مجتارَ الهواء نـارُها
ما طارَ في آثارِها شرارُها طاعتُهُ لفتيَـة تَخْتارُها
يَقَعْنَ فيما وقعَتْ أبصارُها حتى إذا الشمس خَبَا استعارُها [3]
واصْفَرَّ من مَغْرِبِها إزارُها وحانَ منْ واردَةِ إصدارُها
حُمْرٌ على أيـديهم بَوارُها فصُرِّعَتْ مَوْشِيّةٌ أطمارُها
في حُلَلٍ قد شُدِّدتْ أزرارُها يضحكُ في لُجَينها نُضارُها

والطرديات عند شعراء الندوة السيفية لم تقتصر على وصف صيد الحيوان والطير وإنما وصفوا أيضاً صيد البحر وهو لون جديد طرقه شعراء سيف الدولة، فوصفوا أدوات الصيد من شِباكٍ وأشراكٍ وشصّ كما وصفوا الصيد من حيتان وأسماك .

---

(١) ديوان السري (١٤٢ ــ ١٤٥) .
(٢) تزجي : في الاصل ترجي ، وهو تصحفي .
(٣) خبا : في الاصل ضبا وهو تحريف .

ولقد وصف الصنوبري صنانير صيد البحر الشبيهة بالأظفار والشبكة وعيونها الكثيرة وفي ذلك يقول [1] :

أفضلُ ما أعددْتُهُ منَ العُدَدْ ... وما حوى صحْبي به غنى الأبَدْ
بناتُ قَينٍ حازَ فيوالحِذْقِ الأمَدْ ... على مقاديرِ مخاليبِ الصُّرَدْ [2]
لهـــا رؤوسٌ أعاديهـــا أوَدْ ... كمثْلِ أنيابِ الأفاعي وأحَدْ [3]
عُجْنـــا بها من حيث ما عاج أحَدْ ... في ظلّ صفصاف علينا قدْ بَرَدْ [4]
شاطىء نهْرٍ لابسٍ درْعَ زَبَدْ ... ولم تَزَلْ تُرْسَلُ طوراً وتُمَدْ
ثمَّ بَعَثْنا ألفَ عَينٍ في جَسَدْ ... فجِئْنَنا بمِثْلِهِنّ في العَدَدْ
ألفٍ منَ الحيتان بيضٍ كالبَرَدْ

وواضح أنه صور الصنانير ثم الشبكة وما أفاء الله عليهم من صيد موفور . ويصف السري الرفاء الشبكة فيقول [5] :

وجَدْوَلٍ بَيْنَ حَدِيقَتَينِ ... مطّرِدٍ مثلِ حُسامِ القَيْنِ
كَسَوْتُهُ واسِعَةَ القُطْرَينِ ... تنْظُرُ في الماءِ بغيرِ عَينِ
راصِدَةٌ كلَّ قريبِ الحَينِ ... تُبرزُهُ مجَنّحَ الجَنْبَينِ
كمُدْيَةٍ مصْقُولَةِ الحدّينِ ... كأنّما صِيغَتْ منَ اللّجَينِ
رِزْقاً هَنيئاً يملأُ اليَدَينِ ... بغيْرِ كَدٍّ وبغَيْرِ أيْنِ

---

(١) ديوان الصنوبري (٤٧٥) .
(٢) القين : الحداد . الصرد : طائر ضخم الراس والمنقار وهو من الجوارح يصطاد به .
(٣) الاود : الاعوجاج والانحناء .
(٤) عجنا : عرجنا وانعطفنا .
(٥) ديوان السري (٢٦٧) .

وهو يصور الشبكة تصويراً رائعاً ويجعلها مدية مصقولة الحدين مصاغة من ا للّجين . ومن رائع وصفه في الغرض نفسه قوله :

يا رُبَّ جسْمٍ كلُّهُ نواظِرُ بآمِقٍ ليستَتْ له محاجِرُ
تَستُرُ عنكَ الشيءَ وهو ظاهرُ محبوبَةٌ خِـلالها الغَوادِرُ
إذا ارتدتْها اللُّجَجُ الزّواخِرُ وضمّها مثلُ المِراةِ سائِرُ
جاءتْ منَ الرزقِ بها جواهرُ صغائِراً تومضُ أو كبائِرُ
كأنّها إذا انتحاها النّـاظِرُ مخازنُ الفضّةِ أو خناجِرُ

ويصف كشاجم أنواعاً عديدة من أصناف السمك فيقول (١) :

يا رُبَّ نهْرٍ مُتأقٍ مَـلآنِ من كلّ مختارٍ منَ الحيتانِ (٢)
الزَّجْرُ والشّبّوطُ والبَنـاني كالطّلْحِ مجْنِيّاً من الجنانِ (٣)
أو كقدودِ أذرُعِ الغَـواني مكْسُوّةً من صفَةِ الرحمنِ
مِثْلُ دروعِ السّادةِ الفُرسانِ كأنّما ينظُرنَ من عِقبانِ

وواضح أنه يصف نهراً مليئاً بشتى أنواع السمك ، وأتى بالصور الفريدة المبتكرة التي امتاز بها في وصفه عامة إذ يشبه السمك بأذرع الغيد الحسان اللواتي حباهن الله بالحسن والجمال . وبدروع الفرسان الأقوياء .

ووصف كشاجم الشص فقال (٤) :

من كان يحوي صَيدهُ الفضاءُ وللبُزَاةِ عِنْدَهُ شِواءُ

---

(١) المصايد والمطارد (٢٣٦) .
(٢) متأق : ملآن .
(٣) الزجر والشبوط والبناني : من انواع السمك .
(٤) المصايد والمطارد (٢٣٤) .

وطالَ بالكَلْبِ لهُ العَنَاءُ فإنَّ صَيْدي ما حَواهُ الماءُ
بمِخْلَبٍ ساعِدُهُ رِشاءُ يَظَلّ والماءُ لهُ غِطاءُ
كما طَوَتْ هِلالها السّماءُ كأنه من الحروف راء
هو ونصف خاتم سواءُ يحمِلُ سُمّاً اسمهُ غِذاءُ
وعَطَباً فيهِ لنا اجْتناءُ تَدْمى به القلوب والأحشاءُ

ونرى أن شعراء الندوة السيفية قد اهتموا اهتماماً كبيراً بشعر الطرد حتى فاقوا غيرهم من الشعراء في هذا اللون من الشعر . وكثر النظم فيه على بحر الرجز والسبب في ذلك كما يراه نلينو «أن هذا النوع من الشعر كان أصله بدوياً ، ومضمونه أقرب إلى أحوال أهل الوبر عنه إلى عيشة سكان المدن وأهل الحضَر [1] . وتفسيره معقول يؤكده ما لاحظناه على لغة الطرديات نفسها من جنوح إلى الغريب وكأن الشاعر يرتد إلى العصر الجاهلي فيصطنع هذه اللغة الجاهلية في طردياته اصطناعاً .

ولقد تأثرت الطرديات كغيرها من فنون الشعر الحمداني بطبيعة المجتمع فكثرت فيها التشبيهات المستمدة من واقع الحياة والبيئة المحيطة بالشاعر . كما أن شعراء الندرة السيفية جددوا في فن الطرد وأكثروا من الحديث عن صيد البحر وبرعوا في ذلك وكان لهم قصب السبق وعلم التجديد في هذا المضمار .

---

(١) تاريخ الآداب العربية (١٩٢) .